

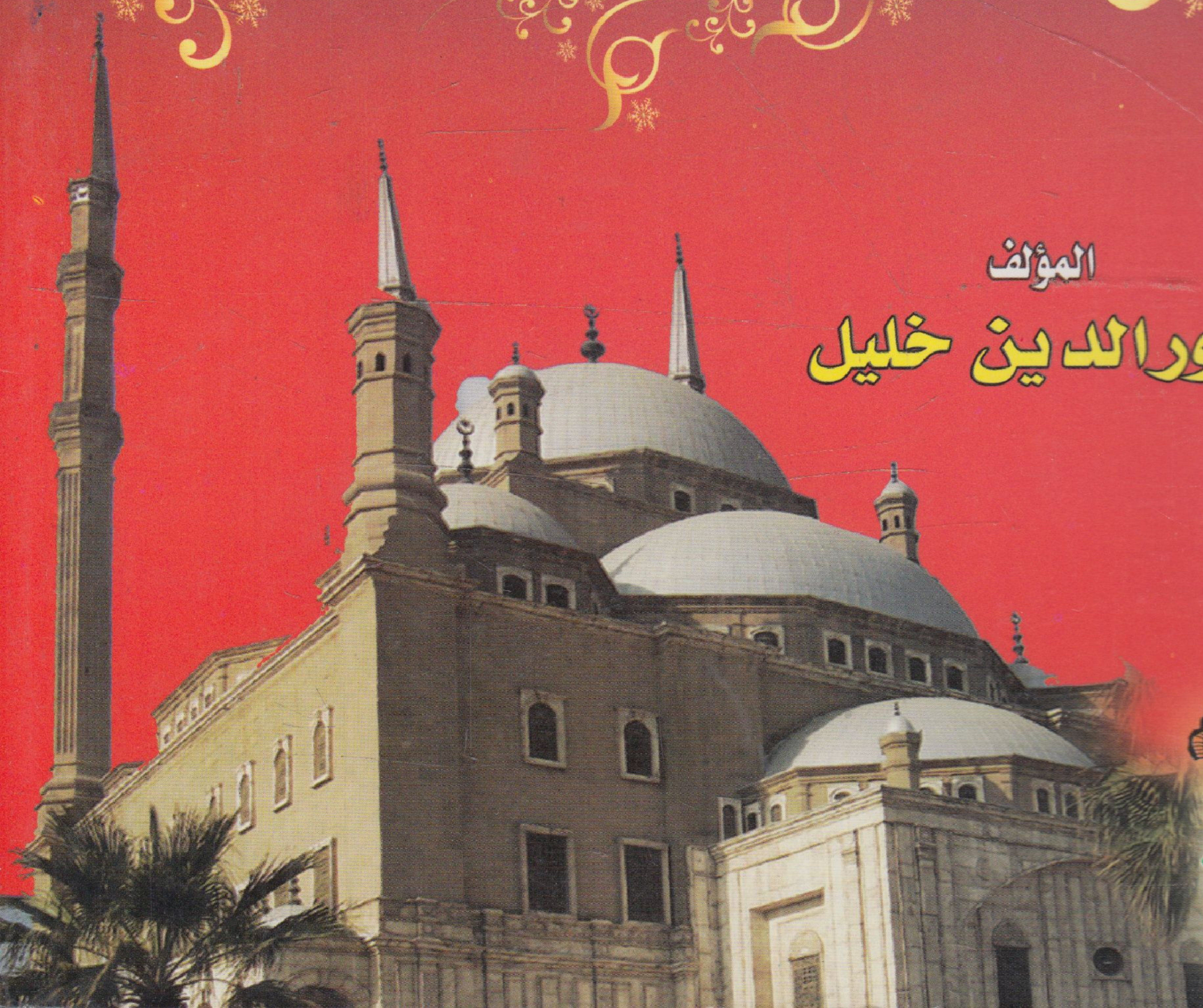
المماليك المفتري عليهم

الظاهر بيبرس
(رعب الصليبيين)



المؤلف

نور الدين خليل



السلطان
المعرفة

لنشر وتوزيع الكتب

9
6
B

**الماليك المفتري عليهم
الظاهر بيبرس (رعب الصليبيين)**

الممالك المفتري عليهم

الظاهر بيبرس (رعب الصليبيين)

تأليف

الأستاذ/ نور الدين خليل

2010

مكتبة بستان المعرفة

لطباعة ونشر وتوزيع الكتب

٠١٢/١١٥١٢٢٧&٠٤٥/٢٢١١٤٩٥:٢٨
١٠٠٠

العنوان **المماليك المفتري عليهم – شجرة الدر (قاهرة الملوك ومنقذة مصر)**
اسم المؤلف **نور الدين خليل**
رقم الإيداع **١٦٩٥٥ / ٢٠٠٩ ...**
الترقيم الدولي **977-5245-47-8**
الناشر **بلسناج المعرفة**
كفر الدوار – الحدائق – ٨٦ ش الحدائق أمام أبراج الحلواني
☎: ٠٤٥/٢٢١١٤٩٥ الإسكندرية ٠١٢١١٥١٢٣٧
Email: boston _ elma3rafa @ yahoo.com

جميع حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو إنتاج هذا المصنف أو أي جزء منه بأية صورة من الصور بدون تصريح كتابي مسبق.

إهداء

إلى الشهداء الفلسطينيين

تصدير

الظاهر بيبرس :

هو الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقداري الصالحى .

خامس سلطان مملوكى بعد :

- ٠١ - شجرة الدر (سلطنة) ١٢٥٠م
- ٠٢ - أيبك (المعز عز الدين) ١٢٥٠ - ١٢٥٧م
- ٠٣ - على بن أيبك (المنصور نور الدين) ١٢٥٧ - ١٢٥٩م
- ٠٤ - قطز (المظفر سيف الدين) ١٢٥٩ - ١٢٦٠م
- ٠٥ - بيبرس الأول البندقدارى (الظاهر ركن الدين) ١٢٦٠ - ١٢٧٧م

✱ إسمه على كل لسان ، وسيرته باقية لكل زمان .

✱ بطل همام ، وشجاع مقدم .

✱ قويت بقوته البلاد ، ورفع أكاليل الغار فوق العباد .

✱ أجمعت كل المراجع على شجاعته . فيقول المقرئى "كان شجاعا عسوفاً عجولاً" .

✱ ويقول أبو المحاسن " كان رحمه الله ملكاً شجاعاً ، مقداماً غازياً ، مجاهداً مرابطاً ، خليقاً بالملك ، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه " .

✱ ويقول الذهبى " والله يرحمه ويغفر له ، فإن له أياماً بيضا فى الإسلام ومواقف مشهورة وفتوحات متعددة " .

✱ ويقول عبد الحميد يونس إنه "الذى ينتظره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو، ويوزع الأمر بينهم بالقسط " .

✱ كما كان مسلماً متشدداً ، ومحسناً كريماً ، وراعياً للأخلاق بين رعيته - إذ أصدر فى عام ١٢٧١م مرسوماً بمنع الخمر .

وقديماً قال فيه أحد الشعراء المعاصرين له :

تدبر الملك من مصر إلى يمن إلى العراق وأرض الروم والنوبى

مقدمة

١ - هذه السلسلة :

هذا هو الكتاب الثالث فى سلسلة (المماليك المفترى عليهم) ، وقد صدر منها :

١ - شجرة الدر ، قاهرة الملوك ومنقذة مصر .

٢ - سيف الدين قطز ، قاهر المغول .

تناول الكتاب الأول الظروف والملابسات المتصلة با لمماليك ونشأتهم وقيام دولتهم . كما تناول أحداث الحملة الصليبية التى قادها القديس لويس التاسع ملك فرنسا على مصر واستيلائه على دمياط وتقدمه حتى مشارف المنصورة وانتهت بهزيمته وأسرره ومعه الجيش الفرنسى كله . كما تناول الأسرة الحاكمة الأيوبية بعد انتصار صلاح الدين الرائع فى معركة حطين ، والصراعات التى شبت بين سلاطين الأيوبيين طوال الجيل الذى أعقب وفاة صلاح الدين بما فيها الحرب الأهلية الأيوبية ، وحتى آخر ملوك بنى أيوب ، الملك الصالح نجم الدين أيوب زوج شجرة الدر التى تولت حكم البلاد بعد انتصارها على القديس لويس . وعالج الكتاب مصرع السلطان المملوك عز الدين أيبك وزوجته شجرة الدر ، والملابسات التى صاحبت مصرعهما وقيام دولة المماليك معالجة تفصيلية . والفصلان الأخيران يركزان على تمحيص وتنفيذ آراء المؤرخين الغربيين وفيه تساؤلات ليس لها اجابات لدى المؤرخين ، سواء العرب أو الغربيين ، وهى تساؤلات تؤدى إلى تبرئة شجرة الدر من جريمة قتل زوجها السلطان المملوك عز الدين أيبك ، بل وتلقى الضوء على حقيقة أن شجرة الدر راحت ضحية لمؤامرة شارك فيها الطامعون فى عرش مصر ومعهم أم على .

أما الكتاب الثانى ، سيف الدين قطز قاهر المغول ، فيصحب القارئ من مولد جنكيز خان وتطور الإمبراطورية المغولية وانطلاقها غربا كالإعصار المدمر ، وتخريب بغداد وقتل

ال خليفة العباسى فيها ، ثم احتلال سوريا والمرور على فلسطين حيث الصليبيين حلفاء المغول ضد المسلمين ، إلى أن عهد رجال مصر بالسلطنة الى سيف الدين قطز ، وتفصيلات معركة عين جالوت الشهيرة التى هى بحق (من معارك المصير الإنسانى) . كما يتناول الكتاب طبيعة الحملة المغولية الشرسة على العالم ، ويورد شتى الأحداث والملابسات التى صاحبت الإجتياح المغولى وتفصيلات معركة عين جالوت ، ويفتد مقولات قالها مؤرخون عرب وغربيون لا أساس لها من الصحة . كما يرد فى الكتاب كمًا كبيرًا من الرسائل المتبادلة بين شتى الزعماء والملوك ، من جنكيز خان نفسه ، مرورًا بمحمد الخوارزمى وهولاكو والخليفة العباسى وسيف الدين قطز وكيربوغا قائد الجيش المغولى فى معركة عين جالوت .

وهذا هو الكتاب الثالث فى هذه السلسلة : الظاهر بيبرس ، رعب الصليبيين .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه السلسلة لا تستهدف الأحداث والتطورات التاريخية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر وحسب ، وإنما تركز على تجلية المهام العظيمة التى أنجزها المماليك ، وإنصاف عظام المماليك من ذوى الخطر، والقاء الضوء على ما قاموا به من أدوار رائعة مضيئة يشرق بها التاريخ العربى والإسلامى ويفخر . وعلى ذلك فإن هذه السلسلة التى تتناول تاريخ العرب والمسلمين فى تلك الحقبة فى مصر والشام ما هى إلى دعوة للمؤرخين ورجال الفكر إلى إعادة النظر فيما يتصل بالمماليك وإنصافهم ، خاصة وأن تلك الفترة شهدت أهم حدثين كبيرين فى التاريخ الإسلامى ، بل فى التاريخ الإنسانى كله وهما :

٢ - الحملات الصليبية :

الحدث الأول ، وهو الأخطر، الحملات الصليبية التى أطلقتها أوروبا المسيحية فى القرن الحادى عشر لتحرير الأراضى المقدسة وقبر الرب من الكفرة المسلمين ، وانقلبت إلى فساد

وسفك للدماء طوال ما يقرب من ثلاثة قرون ، عانت فيها الإنسانية معاناة كبيرة ، وأزهقت
أرواح كثيرة ، وسالت دماء غزيرة ، بل عانى فيها مسيحيو الشرق الأرثوذكس من بنى
عقيدتهم المسيحيين الكاثوليك معاناة بالغة ، واستبيحت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في
القسطنطينية وخُنقت ، وسيطر عليها الكرسي الكاثوليكي لفترة من الزمان .

فى عام ١٠٩٥م وقف البابا إيربان الثانى فى مدينة كليرمونت الفرنسية أمام جموع
وحشود تنتظر خطابه الذى أذيع أن سيكون له أهمية بالغة ، وإذا به يطلق صيحته الشهيرة
التي دعا فيها إلى حمل الصليب والتوجه شرقا لتحرير الأرض المقدسة وقبر المسيح من
أيدي الكفرة المسلمين ومناصرة مسيحيي الشرق فى العالم المسيحي الأرثوذكسي ، واعداء
من يأخذ الصليب ، أي يضع صورته على ملابسه ويخرج ، بالغفران من الخطايا .

خطاب البابا إيربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختارا! لقد جاءت من
تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا
لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد
المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ،
ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن
عذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن
يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها
أقاليم بلغ من سعتها أن المسافرين فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين
كاملين .

على من تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ،
إذا لم تقع عليكم أنتم - أنتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين

بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟

ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم ، أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم - فليثر همتمكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا .

الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست - لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج إن المدينة العظيمة القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السماوات .

(قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥ - ١٦)

(الترجمة العربية بقلم محمد بدران)

واشتعلت الجموع المنصتة المشدوهة حماسا ، وراحت تردد فى صياح صاخب :
 "الرب يشاؤها ... الرب يشاؤها" . وعلى الفور انطلقت الحشود ، سواء من الفقراء
 المعدمين المتلهفين إلى أرض اللبن والعسل ، أو من أمراء الإقطاعيين المفلسين الذين
 حرّمهم نظام توريث الإبن الأكبر من اقتناء الإقطاعيات ، ولاحقا من الملوك والأباطرة
 الذين خرجوا بجيوشهم ، طوعا أو كرها ، انصياعا لأوامر الباباوات أو إشباعا لأطماع
 خاصة ، أو تشغيا لأحقاد دفيئة .

الجدول (١) الحملات الصليبية : تواريخها وأسمائها ونتائجها

التاريخ	اسم الحملة الصليبية	النتائج
١٠٩٦م	حملة الشعب	دمرها الأتراك فى آسيا الصغرى
١٠٩٦م	٣ حملات صليبية ألمانية	مذابح اليهود فى أوروبا ، دمرها المجرىون
١٠٩٦م	<u>الحملة الصليبية الأولى</u>	إنشاء إمارة الرها ومملكة القدس
١١٠٠م	الحملة اللومباردية	دمرها قلج أرسلان
١١٠١م	الحملة النفرسية	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٠١م	الحملة الأكيثانية	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٤٧م	<u>الحملة الصليبية الثانية</u>	حصار دمشق
١١٨٩م	<u>الحملة الصليبية الثالثة</u>	احتلال قبرص وعكا
١٢٠١م	<u>الحملة الصليبية الرابعة</u>	(نهب القسطنطينية وإنشاء كنيسة وامبراطورية لاتينية فيها)
١٢١٧م	<u>الحملة الصليبية الخامسة</u>	استعادة الصليب الحقيقى
١٢٢٨م	<u>الحملة الصليبية السادسة</u>	استعادة اورشليم سلميا بالمفاوضات
١٢٤٨م	<u>الحملة الصليبية السابعة</u>	أسر الملك لويس التاسع فى المنصورة
١٢٧٠م	<u>الحملة الصليبية الثامنة</u>	موت الملك لويس التاسع أمام تونس

المصدر: قاموس الأديان الكبرى الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام (انجليزى/عربى
 ج ١ ص ١٥١) - من وضع المؤلف .

٣ - الإجتياح المغولى والتحالف مع الصليبيين ضد الإسلام :

تزامن مع الخطر الصليبي خطر آخر تهدد العالم الإسلامى ، جاء هذه المرة من الشرق من وراء النهر وأقصى آسيا ، ألا وهو الخطر المغولى بقيادة جنكيزخان الرهيب الذى كان قد قهر الصين بالفعل ، وانطلق غربا يحرق ويدمر. وفى سنة ١٢٢٠م استولى المغول على سمرقند وبخارى ، وفى منتصف القرن كانوا قد استولوا على روسيا ووسط أوروبا وشمال إيران والقوقاز، وفى ١٢٥٨م غزوا عاصمة الخلافة العباسية بغداد بقيادة هولاكو وأنهوا بقايا الإمبراطورية العباسية التى كانت فى قمة روعتها .

وأسفر الإجتياح المغولى عن اضمحلال الشرق العربى الإسلامى اضمحلالا شديدا . إذ قتل المغول أعدادا غفيرة من الدارسين والعلماء ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال لاتعوض ، فأنمحي الكثير من التراث الثقافى والعلمى والتكنولوجى الذى لا يقدر بثمن مما كان يحتفظ به الدارسون المسلمون ويضيفون إليه طوال ما يقرب من خمسمائة سنة .

وانطلق المغول من العراق غربا إلى داخل سوريا ثم يمموا وجههم شطر مصر. وللمرة الأولى يجابه المغول عدوا يرفض الخضوع لقوتهم الهائلة ، ألا وهم المماليك الذين تصدوا للمغول بقوتهم العسكرية والمعنوية الجبارة . ولأول مرة يتجرع المغول كأس الهزيمة فى معركة مفتوحة عام ١٢٦٠م ، بعد أن استطاع المماليك تعبئة قواتهم فى الوقت المناسب ، وساروا شرقا حيث درات رحى معركة عين جالوت الشهيرة بالقرب من الناصرة بفلسطين واجتثوا شأفة المغول .

وكان القديس لويس التاسع ملك فرنسا قد جاء إلى مصر واحتل دمياط أثناء أن كان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى الشام ، وتقدم لويس التاسع باتجاه المنصورة بجيشه الضخم ميمما وجهه شطر القاهرة .

ولقد تسلطت على الملك لويس التاسع هواجس منعتة من التفاوض أو الإتفاق مع هؤلاء المسلمين الكفرة ، لكن تلك الهواجس لم تكن لتنطبق على المغول الوثنيين ، إذ وصل إلى قبرص اثنان من النساطرة في ديسمبر ١٢٤٨م ، أرسلهما القائد المغولي أليغيداي ، حاكم الموصل من قبيل الخان الأعظم ، وأبرزاً رسالة تسهب في تعاطف المغول مع المسيحية ، الأمر الذي أدخل البهجة على لويس التاسع فأرسل من فوره بعثة من المسيحيين الدومينيكانيين برئاسة أندرو أوف لونيمو وأخيه وهما يتحدثان العربية ، وقد حملت البعثة معها هدايا تتألف من نموذج لكنيسة وبعض الآثار الدينية لمذبحها وغير ذلك ، وقابلت البعثة أليغيداي حاكم الموصل الذي أرسل البعثة إلى منغوليا ، حيث وجدت أن جويوك كبير المغول قد مات وأرملته أوغول تقوم بالوصاية . وقابلت الأرملة البعثة بمقابلة كريمة ، غير أنها اعتبرت الهدايا مجرد إتاوة من تابع لسيده . وحالت مشاكل الأسرة المغولية دون إرسال حملة كبيرة الى الغرب ، وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بمجرد خطاب شكر من الأرملة باعتبارها السيد الأعلى لما أبداه تابعها من حرص على خطب ود المغول ، وطلبت إرسال هدايا مماثلة كل عام . وذهل لويس التاسع من هذا الرد ، إلا أنه لم يفقد الأمل في التوصل الى تحالف مع المغول يوماً ما .

لقد هزأ جنكيز خان بالإنسان ، وأقام إمبراطوريته على أشلاء إنسانية ، وثبت دعائم الإمبراطورية بأعمدة البؤس الإنساني . وكان قد أطلق على نفسه اسم :

(سوط الله المرسل لمعاقبة الإنسانية على آثامها)

وكباقي الشعوب التي وصلها الإسلام أو وصلت إليه ، دخل المغول في الإسلام جماعات وزرافاتاً . وفي باكورة القرن الرابع عشر أعلن غازان خان محمود أن الإسلام دين الدولة ، وظلل الإسلام الجزء الشرقي من الإمبراطورية المغولية ، وراح المغول يبنون المساجد والمدارس ويرسلون البعثات الدراسية بكافة أنواعها .

على أن مغول الغرب ، فى فارس وأراضى الرافدين وما حولها ، دأبوا على مناوئة المغول الذين أسلموا فى الشرق ، ولذا استمرت الحروب المغولية مع المماليك فى سوريا ، وحاربهم بيبرس فى تسع معارك . ثم حاربهم المماليك تباعا بعد بيبرس إلى أن قضوا عليهم قضاء تاما .

وسرعان ما تمكن المماليك من دحر الصليبيين عندما استولى الأشرف خليل على عكا سنة ١٢٩٠م وبذا لم يبق فى الشرق العربى الإسلامى جندي صليبي واحد .

وعلى ذلك ، كان لدولة المماليك دورا جوهريا فى تاريخ الإسلام ، ولولاهم لخضع العالم الإسلامى كله من أقصى شرق آسيا وحتى المحيط الأطلنطى غربا لأعداء الإسلام المتربصين به من شاكلة القديس الملك لويس التاسع وهولاكو ومسيحيو الشرق النساطرة وغيرهم .

وكان الأحرى بالدول الإسلامية ، خاصة البلدان العربية ، وبالأخص مصر ، أن تنشئ قسما متخصصا لدراسة التاريخ المملوكى بالجامعات أو المعهد العلمية ، بل ينبغى قبل ذلك الحرص على إدراج التاريخ المملوكى المبسط لتلاميذ المدارس الثانوية .

نورالدين خليل

رجب ١٤٢٦ هـ / أغسطس ٢٠٠٥م



الفصل الأول

هل كان المماليك عبيدا ؟

✱ أولا : العبودية فى مسيرة الإنسان

✱ ثانيا : نظرات فى ظاهرة المماليك



العبودية



أست إنساناً وأخاً !

أولا : العبودية فى مسيرة الإنسان

- ١ - نشأة الإسترقاق
- ٢ - مصر القديمة
- ٣ - قانون حمورابى
- ٤ - الصين
- ٥ - الهند
- ٦ - كوريا
- ٧ - الهند الصينية
- ٨ - الفلبين ونيبال والملايو واليابان
- ٩ - تايلاند وبورما
- ١٠ - إنجلترا
- ١١ - بلدان الشمال الإسكندنافية
- ١٢ - بلدان القارة الأوروبية
- ١٣ - أمريكا الشمالية
- ١٤ - الدنيا الجديدة (أمريكا)
- ١٥ - الديانة اليهودية
- ١٦ - الديانة المسيحية
- ١٧ - الإسلام

ثانيا : نظرات فى ظاهرة الممالك

- ١ - مصير العبودية
- ٢ - النخاسة
- ٣ - هل كان الممالك عبدا
- ٤ - ظاهرة فريدة فى التاريخ



أولا : العبودية فى مسيرة الإنسان

١ - نشأة الإسترقاق:

جاء فى دائرة المعارف البريطانية :

" لا تعى الذاكرة الإنسانية متى نشأت العبودية وما هو أصلها ، وكل ما يقال عن بداياتها إنما هو ضرب من التخيل ، فيفترض الإنسان أحيانا أن الإسترقاق قد تقرر فى وقت ما فى الماضى السحيق ، وأن الأجدى تشغيل الأشخاص المعتقلين بسبب جرائم ارتكبوها أو نتيجة وقوعهم فى الأسر أثناء المعارك الحربية فى أي عمل بدلا من قتلهم أو نبذهم أو أكلهم . على أنه من غير المعروف ما إذا كان ذلك قد حدث فعلا ومتى . "

٢ - مصر القديمة :

وعلى الرغم من ذلك يرد فى الموسوعة المذكورة ما يلى :

"وتواجد العبيد فى مصر القديمة ، ويُعرف أنهم كانوا يقتلون ليصاحبوا مالكيهم إلى الحياة الآخرة . وكان الظن أن العبيد هم بناء الأهرامات ، غير أن ما كشفت عنه الدراسات العلمية المعاصرة أن الفلاحين هم الذين شيدوا الأهرامات فى الأوقات التى لم تشغلهم فيها الزراعة . "

ولا يرد فى تواريخ الفراعين المكتوبة أو المحفورة وجود عبيد أو أسواق لبيع العبيد فى المجتمع المصرى القديم ، كما لا يرد ذكر عن قتلهم لمصاحبة مالكيهم إلى الحياة الآخرة ، إذ لم يعثر على موميات عبيد محنطين فيما كشفت عنه الآثار . وإنما كشفت الآثار عن موميات للفراعين والنبلاء وأفراد عائلاتهم ، حتى الأطفال ، ولم يعثر على موميات لأفراد الشعب العاديين ، فضلا عن العبيد . وما جاء فى الموسوعة المذكورة محض خيال ، تماما كما (ظن) كاتب نفس الفقرة بأن العبيد هم بناء الأهرامات . ولقد لوحظ على هذه الموسوعة الشهيرة الرائدة بعض الإنحياز فى طبعاتها الحديثة . وعلى سبيل المثل ، يرد فى الطبعة الرابعة عشرة من الموسوعة ترجمة موضوعية وصادقة عن جمال الدين الأفغانى ، كباعث للإسلام فى الشرق . وفى الطبعة الخامسة عشرة يجد القارئ جمال الدين الأفغانى وقد تحول إلى رجل سياسة ضالع فى دسائس السفارات بين اسطنبول ودمشق والقاهرة وغيرها من العواصم الإسلامية . وهناك أمثلة أخرى كثيرة ليست هذه الصفحات مجالا لها .

٣ - قانون هامورابى : (١٧٥٠ ق . م .)

كانت ظاهرة العبيد مؤسسة بارزة فى قانون هامورابى البابلى الذى عاش فى حوالى سنة ١٧٥٠ ق . م . وفيما يلى خمسة مواد تتعلق بالعبيد فى ذلك القانون :

١٥ - يعاقب بعقوبة الإعدام كل من يأخذ عبدا أو أمة من البلاط، أو من

أحد الأحرار ، إلى خارج بوابات المدينة .

١٦ - يعاقب بعقوبة الإعدام صاحب البيت الذى يأوي فى بيته عبدا هاربا أو

أمة هاربة من البلاط أو من أحد الأحرار ، ولا يُحضر العبد أو الأمة إلى

سلطة الإدعاء العام .

١٧ - إذا عثر شخص ما على عبد هارب أو أمة هاربة فى أنحاء البلد ،

ويحضرهما إلى سيدهما ، يدفع مالك العبد أو الأمة لذلك الشخص قطعتي

شيكل من الفضة .

١٨ - وإذا رفض العبد الإفصاح عن إسم سيده ، يقوم الشخص الذي عثر عليه بإحضاره إلى القصر ؛ ويجرى مزيد من التحقيق ، ويُعاد العبد إلى سيده .

١٩ - وإذا احتفظ ذلك الشخص بالعبد أو الأمة في بيته ، وضبطا في المنزل ، يعاقب ذلك الشخص بعقوبة الإعدام .

٢٠ - وإذا هرب منه العبد الذي وجدته ، يقسم ذلك الشخص لمالك العبد ، وتبرأ ساحته .

المصدر: المرجع المصدري للتاريخ القديم ، قانون هامورابي (حوالي ١٧٨٠ ق.م.)
ترجم النص إلى الإنجليزية ل. ي. كنج L. W. King (ترجمه المؤلف إلى العربية)
Ancient History Sourcebook, HAMMURABI'S CODE OF LAWS
(Circa 1780 BC) Translated by L. W. King.

٤ - الصين : أسرة شانج الحاكمة (القرون ١٨ - ١٢ ق . م.)

من واقع الدراسات التي أجريت في مجتمعات الصين القديمة يتضح أن الإسترقاق كان موجودا منذ عصور قديمة تصل إلى أسرة شانج الصينية الحاكمة من القرن الثامن عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، حيث كان الرقيق يمثلون خمسة في المائة من السكان . وظل الإسترقاق يشكل سمة من سمات المجتمع الصيني حتى القرن العشرين. وطوال تلك الفترة تقريبا كان الرقيق يتواجدون بنفس الطريقة التي يتواجدون بها في أي مكان آخر ، بما في ذلك الأسر في الحروب ، والإغارة ، وبيع المدينين العاجزين عن الدفع ، وبيع النساء والأطفال (لتسديد الديون أو من إملاق البائعين) ، وبيع أقارب المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام . وأخيرا يبدو أن الإختطاف كان يسفر أحيانا عن تدفق منتظم للأرقاء . وكانت الوساطة من السمات الهامة في بيع الأفراد وتحويلهم إلى أرقاء ؛ ذلك أن الوسيط كان هو الذي يعمل على إبعاد هؤلاء الأفراد عن موطنهم فيصبحوا بذلك أغرابا ، ومن ثم لا يعلم المشتري شيئا عن أصلهم على أن الأسر الصينية كانت تُخترق أحيانا ، وأقام بعض مالكي الرقيق نوعا من

صلة القرابة مع عبيدهم ؛ فكان بعض مالكي الرقيق يورثون ذكور الرقيق في حالة عدم وجود ذرية من الورثة . وهناك أسباب كثيرة ومعقدة حالت دون تحول الصين إلى مجتمع يمتلك الرقيق ، على أنه يقينا كان توفر العمال زهيدي الأجر من غير الرقيق احد تلك الأسباب .

٥ - الهند : (القرن الأول قبل الميلاد)

تسجل قوانين مانو السنسكريتية في القرن الأول قبل الميلاد تواجد الرقيق في الهند القديمة ، ولم تكن هناك من وثائق لذلك الإسترقاق سوى القليل ، إلى أن وضعه المستعمرون البريطانيون موضع الدراسة في القرن التاسع عشر ، مدفوعين برغبتهم في إلغاء الإسترقاق . وفي سنة ١٨٤١م كان عدد الأرقاء في الهند يقدر بما بين ٨ و ٩ ملايين عبد أكثرهم من العبيد الريفيين أو أرقاء الأرض (أي العبيد المرتبطين بالأرض التي يعملون عليها لكنهم يستطيعون رغم ذلك مغادرتها . وكانت اكبر نسبة من العبيد تتواجد في ملابار غربي الهند حيث كانت تمثل ١٥% من السكان . وكان العبيد الريفيون أساسا يمثلون مجتمعات مستعبدة ؛ أما باقي العبيد فكانوا يستجلبون فرادي إما بالشراء من الوسطاء أو من الآباء أو بالإسترقاق الذاتي نتيجة الجوع .

٦ - كوريا :

كان لدى كوريا عدد كبير جدا من الرقيق يتراوح بين ثلث و نصف عدد السكان في أغلب الفترة الألفية من أسرة سيلا الحاكمة Silla dynasty (٦٦٨ – ٩٣٥م) وحتى منتصف القرن الثامن عشر . وكان أغلب العبيد الكوريين يتوالدون في أراضيهم الأصلية . وعلى الرغم من أعداد الرقيق الكبيرة يبدو أن تأثيرهم في المجتمع الكوري كان ضئيلا .

٧ - الهند الصينية :

كان الإسترقاق في الهند الصينية عملية معقدة بسبب التقاليد التي كانت تسيطر على مالكي الرقيق وهي التقاليد التي كانت تحتم معرفة أصل العبيد ، الأمر الذي يفسر السبب في

أن أغلب الرقيق كان من أبناء الوطن الأصليين . وكان المقصود من الرق أساسا إظهار الهيبة والمكانة فيما بين عليّة القوم والعائلات الكبيرة وإن كانت هناك بعض الإستثناءات .

٨ - الفلبين ونيبال والملايو وإندونيسيا واليابان :

عرفت هذه البلدان ممارسة الإسترقاق منذ العصور القديمة وحتى العصور الحديثة . وتواجدت نفس تلك الممارسات فيما بين شعوب أواسط آسيا : شعوب سوجديانا Sogdiana وخوازم Khorezm وغيرهما من الحضارات المتقدمة ؛ والمغول والكالميكس Kalmyks والخزك Kazaks ؛ والغديد من الشعوب التركية التي تحول أغلبها إلى الإسلام .

٩ - تايلاند وبورما:

وكان الإسترقاق واسع الإنتشار في المناطق الآسيوية الأخرى كذلك . ففي بعض مناطق تايلاند وبورما كان ثلث السكان من العبيد في القرون السابع عشر وحتى التاسع عشر ، وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على التوالي . على أنه ليس هناك ما يكفي من المعلومات بحيث يمكن القول بأن تلك المجتمعات كانت مجتمعات استعبادية .

١٠ - إنجلترا:

قام وليم الأول الغازي في سنة ١٠٨٦م بإجراء مسح لإنجلترا يطلق عليه "كتاب يوم الحساب، Domesday Book"، ضم نسبة ١٠% من السكان على أنهم أرقاء ، وكانت هذه النسبة ترتفع إلى ٢٠% في بعض الأماكن .

١١ - بلدان الشمال الإسكندنافية:

كان الرق بارزا خلال حقبة الفايكنج Viking (٨٠٠/١٠٥٠م) عندما كان العبيد الذين يستخدمون في الداخل وأولئك الذين يباعون في أسواق الرقيق العالمية هدفا رئيسيا للإغارة . كما كان العبيد متواجدين بأعداد كبيرة في البلدان الإسكندنافية قبل وبعد حقبة الفايكنج .

١٢ - بلدان القارة الأوروبية :

كان الرق موجودا فى فرنسا وألمانيا وبولندا وليثوانيا وروسيا . فكانت روسيا أساسا تمثل عاملا مساعدا لغارات الفيكينج من أجل الرقيق للمرور من اسكندنافيا إلى بيزنطة فى القرن التاسع ، وبقي الإسترقاق يمثل مؤسسة رئيسية هناك حتى بدايات عشرينات القرن الثامن عشر (١٧٢٠م) ، عندما حولت الدولة عبيد المنزل إلى أجراء المنزل كي تضعهم فى قوائم دافعى الضرائب . وفى عام ١٨٦١م أصدر القيصر ألكسندر الثانى مرسوما بتحرير العبيد من مالكيهم . ويجادل الكثير من الدارسين قائلين إن السوفيات أسسوا نوعا من عبيد الدولة فى معسكرات جولاق Gulag التى ازدهرت حتى عام ١٩٥٦م .

١٣ - أمريكا الشمالية :

وهناك فى أراضى الدنيا الجديدة بعض أفضل الوثائق عن المجتمعات الإستعبادية وهى كلامات وبوني ومجتمعات الصيد مثل يوروك ، وهى المجتمعات التى كانت تعيش بطول الساحل الغربى من الاسكا وحتى كاليفورنيا . وكانت الحياة يسيرة فى تلك المجتمعات .

١٤ - الدنيا الجديدة (أمريكا):

هناك بعض المجتمعات الإستعبادية موثقة توثيقا كاملا ، وهى مجتمعات كلامات Klamath وبونى Pawnee ، ومجتمعات صيد الأسماك مثل اليوروك Yurok ، وهى المجتمعات التى كانت تعيش بطول الساحل مما يعرف الآن بالاسكا وحتى كاليفورنيا .

وقد انخرط الأرقاء فى الرق من خلال بيع أنفسهم والإعتقال ، وكان بإمكانهم شراء حريتهم على نحو يسير نسبيا . ودائما ما كان الأرقاء يعملون كحمالين فى غيبة حيوانات الجر . وأما مصير الأرقاء الآخرين فكان أسوأ: إذ كان بعضهم يشترون من قبائل المايا ، ويلقى الآخرون حتفهم بأعداد كبيرة . فكانت الصفوة الإجتماعية تأكل بعضهم .

١٥ - الديانة اليهودية:

تشتمل الشريعة الموسوية على الكثير من النصوص المتعلقة بوضع العبيد كنظام مستقر ومعترف به ، وفيما يلي بعض نصوص أسفار العهد القديم ، أي التوراة :

"فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته . وقال مبارك الرب إله سام . وليكن كنعان عبدا لهم . ليفتح الله ليافت فيسكن فى مساكن سام .
وليكن كنعان عبدا لهم " (سفر التكوين ٩ : ٢٥ - ٢٧)

"... فشفى الله أبيمالك وامراته وجواريه فولدن" (سفر التكوين ٢٠ : ١٧)

"أعبد إسرائيل أو مولود البيت هو. لماذا صار غنيمة" (سفر إرميا ٢ : ١٤)

١٦ - الديانة المسيحية:

لم يرد أي ذكر فى أي مكان من العهد الجديد يمنع الرق . وإنما سارت الديانة المسيحية على نهج اليهودية فأباححت الرق ولم تحرمه وأمرت العبيد بالطاعة لأسيادهم كما يطيعون المسيح . وجاء فى العهد الجديد من الكتاب المقدس :

"أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم
كما للمسيح" (الرسالة إلى أهل أفسس ٦ : ٥)

غير أن العهد الجديد يغرس فى الأذهان من المبادئ ما يثبت أن الهلاك مصير أية مؤسسة تقوم على أساس افتراض نقص ما فى الفرد أو فى الحقوق الإجتماعية .

١٦ - الإسلام :

الإسلام هو النظام الدينى الوحيد الذى لم يبح الرق ، وتنص شريعته على أن العتق كفارة للذنوب ، وتنص قلبا وقالبا على الكثير من المنافذ التى تؤدى إلى التخلص من هذه الظاهرة القديمة . وورد عتق الرقيق أو (تحرير الرقبة) أو (فك الرقبة) فى القرآن الكريم فى أربع كفارات : القتل الخطأ ، واليمين الكاذب ، والظهار ، ثم تتويجا للسعى فى الحياة على إجمالها :

١- "ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة..." (النساء) (٤ : ٩٢)

٢- "لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة..." (المائدة) (٥ : ٨٩)

٣- "والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا..." (المجادلة) (٥٨ : ٣)

٤- "فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ... " (الشمس) (٩٠ : ١١ - ١٤)



ثانيا : نظرات فى ظاهرة الممالك

١ - مصير العبودية :

من العجالة السابقة نعلم أن العبودية كانت تشكل ركنا أساسيا فى الحياة الإنسانية منذ فجر التاريخ وفى أرجاء العالم المعروف كله ، أو جُلّه . ولم يفكر أحد بطريقة مناهضة للعبودية ، وإنما كان هناك بلا شك متعاطفون مع ضحايا العبودية من بنى الإنسان ، إلا أن ذلك التعاطف لم يخرج عن دائرة التخيل . ولم تطرأ فكرة تحرير العبيد فى أذهان الفلاسفة القدامى من ذوى العقول الجبارة ، ولا فكرت الحضارات القديمة ولا جَرأت على المناداة بتحرير العبيد . ويبدو أن العقل الإنسانى كان ما يزال فى مرحلة طفولته ، فلا يكاد يفقه قولا ، ولا يحسن فعلا ، وإنما خيم القصور عليه ، واستمر السطوة والغلبة وما إلى ذلك من مشاعر خادعة تخلو من الرحمة والإنسانية .

ثم جاء الإسلام ، فى هذا البحر الصاخب بأسواق الرقيق ، فكان رحمة من الله سبحانه وتعالى أن عالج تلك المأساة بالحكمة والتأنى . فحضر على تحرير الأرقاء كما مر بنا ، بل وجعل فك الرقبة كفارة للذنوب ، وطريقا للحياة .

وفضلا عن ذلك ، حرر الأمة بطفلها الذي تلده . فالإنسان فى الإسلام يولد حرا ، ولا بد لمن تتعهد بالرعاية والتربية الإسلامية من أن تكون حرة هى الأخرى . وذلك منفذ آخر هام لتصفية الرق بطريقة تتصف بالحكمة والسلاسة . وساوى بين الناس على اختلاف ألوانهم ومراكزهم الإجتماعية : "لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى" . وسرعان ما انكمشت العبودية واختفت أسواق الرقيق شيئا فشيئا من كل أرض ظللها الإسلام ، إلى أن اختفت نهائيا بلا رجعة .

حقا بعث الله سبحانه وتعالى نبى الإسلام بالإسلام رحمة للناس :

"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (سورة الأنبياء) (٢١ : ١٠٧)

٢ - النخاسة :

يقول ابن منظور فى لسان العرب : نخس ، الدابة وغيرها ينخسُها وينخسُها ... نخساً : غرز جنبها أو مؤخرها بعود أو نحوه ، وهو النخس . والنخاس : بائع الدواب ، سمى بذلك لنخسه إياها حتى تنشط ، وحرفته النخاسة أو النخاسة ، وقد يسمى بائع الرقيق نخاساً ، والأول هو الأصل .

وفى معجم الأساس للزمخشري ، وكذلك فى القاموس ، ترد كلمة نخاسه بمعنى الإبعاد . ونخس بالرجل أو أنخس به : أثاره أو أزعه . وأنخس به ، أى أبعده . وعلى ذلك فالنخاسة هى الإبعاد .

وانتشرت النخاسة فى العالم الإسلامى من القرن التاسع الميلادى ، عندما كان النخاسون يختطفون الأطفال من عائلاتهم ، أو الأيتام الذين قُتل آباؤهم فى الحروب، وفى بعض الأحيان القليلة يتركهم الوالدان من إملاق، إذا كان الفقر شديداً وبالحياة خصاصة وعوزاً . وكان النخاسون يجمعون الأطفال من بلاد القوقاز أو التركستان أو غيرها كى يصبحوا جنوداً مملوكين لمن اشتراهم .

٣ - هل كان المماليك عبيداً :

يفصل الأستاذ أحمد تمام بأسلوب شيق نشأة المماليك فى مقال بعنوان (قيام دولة المماليك فى مصر والشام) نشر فى موقع (إسلام أون لاين) بالشبكة الدولية بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٤٢٦هـ / ٢٨ أغسطس ٢٠٠٥م ، فى ذكرى وفاة أيبك يوم ٢٤ ربيع أول سنة ٦٥٥ هـ . واللافت للنظر أن المقال يدحض ما لصق بالمماليك من عبودية ، ويؤكد أنهم أحرار منذ ولادتهم وحتى بعد انتقالهم إلى مصر غيرها من الأصقاع الإسلامية . واستكمالاً لفائدة القارئ ، نورد هذا المقال فيما يلى :

"يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل دولتهم في مصر والشام بأمَد بعيد؛ إذ استخدمهم الخلفاء العباسيون الأوائل، واعتمدوا عليهم في توطيد دولتهم، واستعانوا بهم في الجيش والإدارة، ولعل الخليفة المأمون العباسي (١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م) هو أول من استعان بهم، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٣ م)، وشكل فرقا عسكرية من الأتراك، وكان يُعنى بشرائهم صغارا ويستجلبهم من سمرقند وفرغانة والسند، وغيرها من أقاليم ما وراء النهر، حتى بلغ عددهم بضعة عشر ألفا، فلما ضاقت بهم بغداد، وزاحموا الناس في الطرقات نقلهم المعتصم معه إلى "سامراء" عاصمته الجديدة التي بناها لتكون حاضرة لملكه.

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أجزاء العالم الإسلامي، وكانت مصر ممن انتهجت هذا النهج، فأكثرا أحمد بن طولون الذي تولى حكم مصر سنة ٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م من شراء المماليك الديالمة، سكان بحر قزوين حتى بلغ عددهم أكثر من ٢٤ ألفا، والتزم الإخشيدون سنة أسلافهم الطولونيين في جلب المماليك الأتراك والاستعانة بهم في الجيش.

وفي الهند قامت لهم دولة قبل أن تقوم في مصر بعد أن نجح "قطب الدين أيبك" في إنشاء دولة عُرفت باسم دولة "الملوك المماليك"، وظلت دولتهم قائمة مدة ٨٤ عاما، بدأت عقب سقوط الدولة الخورية سنة ٦٠٢ هـ = ٦٨٩ م .

الصالح أيوب والمماليك

عُني الصالح أيوب (٦٣٨-٦٤٧هـ = ١٢٤٠ - ١٢٤٩م) منذ أن تولى حكم مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك بعد أن ساندوه في توطيد سلطانه، حتى صار معظم جيشه منهم، وبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة "الروضة" في وسط النيل وأسكنهم بها، وجعلها مقرا لحكمه، وعُرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك "البحرية الصالحة".

وقد برز هؤلاء المماليك البحرية وتعاظم شأنهم في خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة التي مُنيت بهزيمة بالغة سنة ٦٤٨هـ = ١٢٥٠م، وانتهت بأسر الملك لويس التاسع قائد الحملة في المنصورة، وتبدد قواته بين القتل والأسر.

نهاية الدولة الأيوبية

توفي الصالح أيوب في أثناء المعركة وخلفه ابنه توران شاه في حكم مصر، لكنه لم يحسن معاملة المماليك البحرية، الذين كان لهم الفضل الأكبر في تحقيق النصر، وحسدهم على مكانتهم التي بلغوها بفضل شجاعتهم وقوة بأسهم، وخشي من نفوذهم فأعرض عنهم، وأوجس منهم خيفة وأضر لهم السوء، غير أنه لخفته ولهوجته كان يجاهر بذلك عند سكره بالليل فينفلت لسانه بما يضره قلبه من قتلهم والتخلص منهم.

يُضاف إلى ذلك سوء تدبيره وفساد سياسته بإبعاده كبار رجال دولته من الأمراء وأهل الحل والعقد، وتقريبه رجاله وحاشيته وإغداقه

عليهم بالأموال والإقطاعات ولم يكن أمام المماليك سوى التخلص من توران شاه قبل أن يتخلص هو منهم، فنجحوا في قتله في فارسكور في صباح يوم الإثنين الموافق (٢٨ من المحرم ٦٤٨ هـ = ٢ من مايو ١٢٥٠ م)، وبمقلته انتهت الدولة الأيوبية في مصر وبدأ عصر جديد.

قيام دولة المماليك

وجد المماليك أنفسهم أمام وضع جديد لم يعهدوه من قبل، فهم اليوم أصحاب الكلمة النافذة والتأثير البالغ، ولم يعودوا أداة في أيدي من يستخدمهم لمصلحته وتحقيق هدفه، وعليهم أن يختاروا من بينهم سلطاناً جديداً للبلاد، فاتفقت كلمتهم على اختيار أرملة أستاذهم شجرة الدر سلطانة للبلاد، في سابقة لم تحدث في التاريخ الإسلامي إلا نادراً، وبايعوها بالسلطنة في (٢ من صفر ٦٤٨ هـ = ٥ مايو ١٢٥٠ م).

غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر شجرة الدر في الحكم، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شئون الدولة، فلقبت معارضة شديدة في داخل البلاد وخارجها، وثارَت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه وجلس شجرة الدر على سدة الحكم، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تُقر صنيع المماليك، فكتب الخليفة إليهم: "إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نُسير إليكم رجلاً".

تنازل شجرة الدر وولاية عز الدين أيبك

لم تجد شجرة الدر بُداً من أن تتنازل عن الحكم للأمير "عز الدين أيبك" أتابك العسكر الذي تزوجته وتلقب بالملك المعز، وكانت المدة التي قضتها شجرة الدر على عرش البلاد ٨٠ يوماً، ولم يكن توليها الحكم ناتجاً عن موافقة شعبية أو اختيار من الخلافة العباسية، وإنما كان وليد الظروف التي أحاطت بمصر في ذلك الوقت.

تولى الملك المعز عرش البلاد، ولم تهدأ أصوات المعارضين لانفراد المماليك بالحكم، بل زاد حدة، وكان على السلطان الجديد للدولة الوليدة أن يواجه بحزم خطر الأيوبيين في الشام وتهديداتهم، وكانوا قد اجتمعوا تحت زعامة "الناصر يوسف" صاحب حلب ودمشق لاسترداد مصر من المماليك، باعتبارهم مغتصبين حق الأيوبيين في حكم مصر، وزحفوا على مصر فالتقى معهم أيبك بقواته في معركة بالقرب من الصالحية في (١٠ من ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ = ٢ من فبراير ١٢٥١ م)، وانتهت بانتصاره وفرار الناصر يوسف ورجاله إلى الشام.

وقد دفع هذا النصر الملك المعز إلى الزحف إلى الشام للقضاء على المعارضة الأيوبية، غير أن تدخل الخليفة المعتصم العباسي وضع حداً للنزاع بين الطرفين؛ فتم الصلح بينهما سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م على أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك، على حين تظل البلاد الشامية في أيدي الأيوبيين، وهكذا انتهت العقبة الأولى في تأسيس

الدولة المملوكية الناشئة بإيفاف النراع والصراع مع ملوك البيت
الأيوبي

عقبات في طريق قيام دولة المماليك

ولم يكد السلطان أيك يتخلص من هذه العقبة حتى واجهته عدة
مشكلات داخلية، بدأت بقيام الأعراب بثورة شعبية في الصعيد
والشرقية تحت رعاة "حصن الدين ثعلب"، هددت البلاد؛ فاضطر
السلطان إلى أن يرسل حملة عسكرية بقيادة "فارس الدين أقطاي" لقمع
هذه الثورة في مهدها؛ فنجح في القضاء عليها قبل أن يستفحل خطرها
أما العقبة الثانية التي واجهت أيك في الداخل فهي ازدياد نفوذ
المماليك البحرية برعاة "فارس الدين أقطاي"، خاصة بعد نجاحهم
في تحقيق انتصارات داخلية وخارجية، فهدد نفوذهم مكانة السلطان،
واشتد خطرهم حتى أصبح يهدد أمن الناس وسلامتهم، وعجز السلطان
عن مواجهتهم والتصدي لاستخفافهم به؛ فكان "أقطاي" لا يظهر في
مكان إلا وحوله رجاله ومماليكه في أبهة عظيمة كأنه ملك متوج،
وبالغ في تحقيره للسلطان في مجلسه فلا يسميه إلا أيك، وتطلعت
نفسه نحو السلطنة، ولقبه زملاؤه بالملك الجواد

استشعر السلطان الخطر وأحس بالحواف من ازدياد نفوذ
"أقطاي"؛ فعزم على التخلص منه فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته
في أمر من أمور الدولة، وهناك تخلص منه بالقتل في (٣ من شعبان
٦٥٢هـ = ١٨ من سبتمبر ١٢٥٤م)، وألقى هذا الحادث الرعب في
قلوب كبار المماليك البحرية فسار عوا بالهرب إلى خارج البلاد، والتجا

بعضهم إلى ملوك البيت الأيوبي في الشام، ولجأ بعضهم الآخر إلى دولة سلاجقة الروم، وتعقب أيبك من بقي منهم في مصر فقبض عليهم، وكتب إلى الملوك الذين لجأ إليهم المماليك يحذروهم منهم ومن غدرهم.

نهاية السلطان أيبك

أسلمت البلاد قيادها للمعز، وتخلص من القوى المناوئة له، وكان من المنتظر أن تتعم البلاد بالهدوء بعد الفوضى والقتال، وينعم هو بزعامة بلد له شأن، ولكن ذلك لم يدم، ودخل في صراع مع زوجته شجرة الدر زاد من ضراوته عزمه على الزواج من إحدى بنات البيت الأيوبي، وبدأ يفكر في الخلاص منها، غير أنها كانت أسبق منه، فدبرت مؤامرة لقتله في (٢٤ من ربيع الأول ٦٥٥هـ = ١١ من إبريل ١٢٥٧م)، ثم لم تلبث هي الأخرى أن قُتلت بعده بأيام قليلة.

وبعد مقتله تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو "نور الدين علي" بن أيبك، وكان في الخامسة عشرة من عمره، وأقاموه سلطاناً على البلاد، ولما تعرض الشرق الإسلامي لخطر المغول الذي اجتاح الشام وأصبحت مصر على مقربة من هذا الخطر، قام قطز نائب السلطنة بعزل السلطان الصغير، وتولى الحكم لمواجهة الخطر المغولي الداهم، وخرج إلى ملاقات المغول في عين جالوت وحقق نصراً تاريخياً في (٢٦ من رمضان ٦٥٨هـ = ٣ من سبتمبر ١٢٦٠م)، وطرد المغول من المنطقة، وضمَّ الشام إلى سلطان المماليك الذين أصبحوا سادة الموقف، ومن بيدهم مقاليد الأمور في مصر والشام "

وفى مقال كتبه برزج أمين سمكوغ ، منشور على موقع الشبكة الدولية لجمعية الشراكسة الخيرية Circassian Benevolent Association بعنوان "استكثر الغرب على العرب والمسلمين أن يعدوا الجيوش لمقاومة الاحتلال"، يتأكد درء صفة العبودية عن الممالك

١ - ظاهرة فريدة فى التاريخ

هي ظاهرة اجتماعية وعسكرية وسياسية وحضارية إسلامية فريدة، كان لها أسبابها العميقة، بدأت بالظهور في المشرق العربي منذ أواخر الدولة العباسية، وتوضحت في منتصف القرن الثاني عشر، واستمرت قرابة ثلاث قرون، وكانت حالة غير مسبوقة في تاريخ العالم .

تعرض المشرق العربي الإسلامي لخطرين عظيمين في تلك العصور، وهما خطر الحملات الصليبية الاستيطانية التي احتلت بيت المقدس واستقرت على سواحل بلاد الشام، منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وخطر اجتياح المغول والتتار الذي أربب العالم بأسره ، ونجم عنه احتلال هولاء لبلاد الشام، وقضاؤه على الخلافة العباسية فيها، ثم استمرار غزواتهم لبلاد الشام على فترات متقطعة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

لقد شعر المشرق العربي وهو قلب العالم الإسلامي، نتيجة لذلك بالحاجة إلى النصر والمعونة لمواجهة هذه الأخطار العظيمة، فكان أن لبث شعوب الإسلام في الأطراف ، وكان النظام المملوكي والجيش المملوكي الوسيلة الفعالة التي أدت إلى تجاوز المحن.

هذه الاجتياحات الخطيرة التي داهمت المشرق العربي، من الشرق والغرب والتي كانت السبب والمبرر لهذه الظاهرة الفريدة من

بوعها، ولم تقتصر الاجتياحات على المشرق العربي بل سارت في كل الاتجاهات وشملت كل بقاع العالم المعروف آنذاك في أوراسيا، وكانت قد بدأت بظهور جنكيز خان، الذي احتل أواسط آسيا وجزءاً من الصين وبلاد إيران، والقفقاس وجنوب روسيا، ثم قسّم البلاد التي فتحها بين أولاده قبل وفاته العام ١٢٢٧ م ٦٢٤ هجرية.

إن ما يهمنا في هذا البحث هو الجزء الغربي من شمال القفقاس (بلاد الشركس)، التي دخلت في حصة جوجي ابن جنكيز خان، والتي شملت كل مناطق السهوب جنوب روسيا أمام شمال القفقاس، وقد دعت دولته بالقبيلة الذهبية، أو دولة التن أوردو وعاصمتها ساراي العام ١٢٣٠ م، ومن بعده تولى ابنه بركا الذي دخل الإسلام، وصار يتعاون مع دولة المماليك في مصر، من منطلق إسلامي، ضد عدوهما المشترك المغول من أبناء عمومته (أولاد تولوي : منكوت هولاكو وابنه أباقا)، وهم حكام إيران، وكان يريد الانتقام منهم لمقتل الخليفة العباسي على يدي هولاكو.

كانت الحروب والاجتياحات من قبل هذه الأقوام الرحل، فقد دمرت الكثير من دول العالم وحواضره، واتسمت بالقسوة والعنف والهمجية، ولم ينج القفقاس من شرورها، فقد كثرت عصاباتهم وخاصة في شمال القفقاس وعملت على مdahمة المدن والقرى للسلب والنهب، وكان منها الحصول على أسرى من السكان وخاصة الأطفال لبيعهم في أسواق النخاسة.

إن أول ذكر لهؤلاء المماليك يعود إلى أواخر الدولة العباسية استعانت بهم الدولة، للقضاء على طبقة العبيد التي كثرت في بغداد واستفحل أمرها وكثر نفوذها .

كما عملت الدول العسكرية التي قامت في المشرق العربي كنتيجة ورد على الأخطار المحدقة، على الإكثار منهم والاعتماد عليهم، لحاجتها الماسة إلى جنود محترفين يمتنون القتال، وليتمكنوا من صد تلك الأخطار التي كانت تهدد البلاد، وعمل سلاطين الأيوبيين من بعدهم على الإكثار منهم في جيوشهم.

بالنسبة للعنصر الشركسي، فإن أول ذكر لهم يأتينا منذ زمن صلاح الدين الأيوبي الذي استخدمهم في جيوشه، لأن الأيوبيين قبائل كردية كانت مقيمة في (دوين) قرب تفليس في القفقاس الجنوبي، وعلى معرفة تامة بالقفقاسيين، ومقدرتهم القتالية، لذلك كان قائدا الفرقتين الصلاحيتين في معركة حطين من الشركس، وهما : (فخر الدين اباضه، وإياز خوج).

وفي زمن قلاوون وأولاده استكثروا من الشراكسة، وكان يرسل الرسل لاستقدامهم، وبلغ تعدادهم في زمن ابنه الخليل ٣٧٠٠ رجلا، مما مهد لاستمرار قدومهم في الأزمنة اللاحقة حتى استلامهم السلطة زمن السلطان برقوق، وبدء قيام دولة سلاطين الشركس البرجيين، العام ٧٨٤ هجرية ١٣٨٢ ميلادية .

٢- من هم المماليك

كان استقدام المماليك إلى المنطقة، سواء باقتنائهم كأسرى حروب، أو استقدامهم بشكل طبيعي، من شعوب مسلمة عرفت بشجاعتها وفروسياتها وميلها إلى القتال ناجماً عن الحاجة الماسة إليهم، وللنصرة والمعونة، لاستخدامهم جنوداً محترفين ومدربين، لمواجهة الأخطار العظيمة التي كان قلب العالم الإسلامي يواجهها، ولم يعرف عن هؤلاء الرجال أنهم عملوا خدماً في المنازل أو عبيداً في الأرض والزراعة أو في أي أعمال إنتاجية أخرى، مما كان العبيد يجلبون من أجله، وكان قدومهم من بلاد فائقة الغنى والثروة والجمال، لذلك فهم لم يكونوا مرتزقة أيضاً جاؤوا من بلاد فقيرة بدافع الحاجة والعوز، بل كانوا من الأحرار وهم أولاد أسر حرة غير مستعبدة، لم تعرف الرق، وحدث أن دمرت قراهم وقتل أهلهم، فاختطفوا وهم أطفال في تلك الحروب والاجتياحات من قبل أقوام رعوية بربرية همجية، فمسهم الرق رغماً عنهم فترة من الزمن عندما صاروا أسرى حروب، وما يدفع في الأسير من أثمان، لا يكون بقصد الاستعباد، بل هو افتداء له وفكاك لأسره، وخاصة إذا كان من يفتديهم يمت بصلة القربى والجنس لهم، وهذا ما نلاحظه عند سلاطين الشراكسة البرجيين الذين كانوا يرسلون الوفود والتجار للبحث دون هوادة عن بني جلدتهم، لفكاكهم وتخليصهم من الأسر، وجلبهم إلى مصر والإكثار منهم ولو دفعوا في هذا أثماناً باهظة، ولم يكونوا يستخدمونهم عبيداً كما أسلفنا، بل كانوا يدخلونهم الطباق أرقى مدرسة في عصرهم، وهل عرف في تاريخ العالم أن العبيد كانوا يدخلون إلى أرقى المدارس، وذلك بغية تأهيلهم

للمهام الجسام التي تنتظرهم، والمناصب الرفيعة في الجيش والدولة في زمن كثرت فيه الأخطار.

إذن فقد شكل المماليك فئة راقية ومتميزة من فئات المجتمع في ذلك الزمن، تخصصت في أمتهان الثقافة الإسلامية العالية المستوى والفروسية والقتال، للدفاع عن الدين والدولة، ولم تكن هذه الفئة المتعلمة والمعدة والمدرّبة على الفروسية والقتال فئة للاستعباد كما أراد لها مؤرخوا الغرب أن تكون من منطلق الحقد الأعمى، وكان من الطبيعي أن يصبح هؤلاء الرجال الطبقة الحاكمة لامتلاكهم مصادر القوة وهي المعرفة والثقافة والتأهيل العسكري العالي المستوى، في دول فرض واقع الحال طابعها العسكري لرد الأخطار المحدقة، بدءاً من قمة الهرم السياسي الذي هو السلطان وحتى أصغر فارس.

٣ - الغرب يستكثر على المسلمين أن يعدوا جيوش المقاومة والتحرير

كان جيش المماليك في ذلك العصر أشبه ما يكون بالقوات الخاصة في الجيوش المعاصرة، إذ كانوا يحصلون في الطباق على إعداد فكري وعقائدي وجسدي ليكونوا جنوداً من طراز رفيع، وقد عادل الفارس الواحد منهم وقتها أربعة عشر فارساً تتارياً في القتال بحسب تقديرات المؤرخين.

لذلك فالكثير من المؤرخين نفوا عنهم صفة العبودية، وخاصة المؤرخين العرب والمسلمون الذين عاصروهم، هذه الصفة التي ألصقها بهم مؤرخوا الغرب مفسرين كلمة مملوك العربية بالعبد في اللغات الأوربية (ESCLAVES) انتقاماً وتشفياً منهم، لقد استكثر مؤرخوا

الغرب على العالم الإسلامي أن يعد جيشاً مدرباً على القتال قادر على قهر الغزاة، لأن هؤلاء الممالك الرجال هم الذين قادوا أهل البلاد، وأنهوا الوجود الصليبي من بلاد الشام، وصدوا غزوات التتار والمغول. ونحن نعتقد أن كلمة مملوك العربية بمفهومها الاجتماعي والسياسي في ذلك الزمن لم يكن بعني العبودية كما رأينا، بل كان يطلق على تلك الطبقة المثقفة التي اشتهرت الفروسية والقتال للدفاع عن البلاد، وأن كلمة عبد الأجنبية (ESCLAVE) خطأ مقصود ووقح، وقع فيه المؤرخون الغربيون عن قصد أو غير قصد، والذين لم يتركوا نقيصة تخطر على البال إلا وألصقوها بهم، على عاداتهم (يريدون دائماً أن يأكلوا التمر ويرجموا بالنوى)، وقد روج أكاذيبهم من نقل عنهم من مؤرخينا المحدثين مع الأسف، بدون تفكير أو تمحيص، وهذا ما لم يكن ينطبق على وضعهم الثقافي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وإنهم كانوا تابعين وموالين وجنوداً فرسان لمن افتك أسرهم من منطلق الحماية والوفاء ، أكان ذلك هو السلطان أو الأمراء أو الدولة، ومعظم المال الذي كان يدفع لاقتكاكهم إنما هو من بيت مال المسلمين، وإن إعتاقهم ونيلهم حريتهم بعد تخرجهم من المدرسة كان أمراً مفروغاً منه ومعد سلفاً، لذلك كانوا يحافظون على ولائهم وعلى وفائهم للشخص الذي افتك أسرهم وكانوا يتسمون باسمه ، وكان من الطبيعي ومن المحتم أنه عندما يقع قلب العالم العربي الإسلامي تحت التهديد أن الأطراف ستتداعى للدفاع عنه، وأنه سيعيد الجيوش القادرة على صد العدوان بالطريقة التي يراها مناسبة له، وهذا ما لم يتمكن المؤرخون الغربيون من إدراكه واستيعابه وهو الشعور بوحدة العالم الإسلامي، لذلك نقول إن حقيقة وضع الممالك الاجتماعي كان التبعية

والموالة والتعصب للإسلام ولطبقتهم المتخصصة المؤهلة لقيادة المجتمع والدفاع عن الدين والدولة ، وأن كلمة مملوك أو عبد التي استخدمها المؤرخون الغربيون بالمفهوم المعاصر الذي أرادوه للكلمة، لا تنطبق على واقعهم الاجتماعي الحقيقي.

ونتهي الفقرة، بذكر وصف أبو حامد المقدسي عن كيفية قدوم بعض البرجيين في كتابه

((دول الإسلام الشريفة)) :

(مولانا السلطان يسمع بأن فلاناً وصل من جركس، فيرسل نائبه إلى حلب لملاقاته، بفرس بسرج من ذهب وكنبوش وكاملية طرش، ويقف النائب في خدمته وكذا كل من مر عليه، بل ومن حين وصوله يعمل خاصكياً، فما يرى نفسه إلا ملكاً لا مملوكاً).

وقد عاش البرجيون كطبقة من الفرسان، لهم عاداتهم وتقاليدهم التي قد تختلف بشكل أو بآخر عن تقاليد وعادات أهل البلاد، وهو السر في استمرارهم لفترة طويلة.



ولقد تواصلت دولة المماليك فى مصر وسوريا لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، يحددها المؤرخون بفترة مقدارها ٢٦٧ سنة ، تعاقب عليها ما لا يقل عن ٤٥ سلطانا من المماليك ، وأفلح البعض منهم فى إنشاء أسر حاكمة ، أشهرهم السلطان قلاوون الذى حكم فى الفترة من ١٢٧٩ إلى ١٢٩٠م ، وحكمت ذريته بفترة انقطاع حتى سنة ١٢٨٢م ، وتتابع من ذريته على حكم مصر أربعة عشر سلطانا . وبعد الإنتصار المملوكى على المغول فى معركة عين جالوت الشهيرة عام ١٢٦٠م بقيادة السلطان قطز ، استولى بيبرس الأول على السلطة ، وهو بحق المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، إذ نشط فى حروبه ضد بقايا الصليبيين ونجح فى القضاء عليهم فى فلسطين وسوريا ، وطارد المغول ، وحكم حتى عام ١٢٧٧م .

ليس هذا وحسب ، وإنما تزامن قيام دولتهم مع أخطر تهديدين تهددا العالم الإسلامى شرقه وغربه : الحملات الصليبية والإعصار المغولى ، كما جاء فى مقدمة هذا الكتاب ، وفى تفصيلات الكتاب الثانى من هذه السلسلة : سيف الدين قطز ، قاهر المغول .

ويكفى المماليك شرفا التصدي لهما ودحرهما ، صونا للإسلام وللإنسانية وللحضارة .

ولقد اعتاد المؤرخون على تقسيم التاريخ المملوكى إلى فترتين : يطلقون على ممالك الفترة الأولى المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢م) ، وعلى ممالك الفترة الثانية المماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧م) . وليس هناك من سبب لهذه التسمية إلا أن المماليك البحرية كانوا يقيمون فى جزيرة الروضة فى نهر النيل (أو بحر النيل) ومن هنا جاءت التسمية ، وأما المماليك البرجية فكانوا يقيمون فى برج القلعة بالقاهرة .



المماليك البحرية

الجدول (٢) سلاطين المماليك البحرية

فترة السلطنة

١٢٥٠م	٠١- شجرة الدر (سلطنة)
١٢٥٠-١٢٥٧م	٠٢- أيبك (المعز عز الدين)
١٢٥٧-١٢٥٩م	٠٣- على بن أيبك (المنصور نور الدين)
١٢٥٩-١٢٦٠م	٠٤- قطز (المظفر سيف الدين)
١٢٦٠-١٢٧٧م	٠٥- بيبرس الأول البندقدارى (الظاهر ركن الدين)
١٢٧٧-١٢٧٩م	٠٦- بركة خان (السعيد بن الظاهر بيبرس)
١٢٧٩م	٠٧- سلامش (العادل بدر الدين بن الظاهر بيبرس)
١٢٧٩-١٢٩٠م	٠٨- قلاوون (المنصور سيف الدين)
١٢٩٠-١٢٩٣م	٠٩- خليل (الأشرف صلاح الدين بن قلاوون)
١٢٩٣-١٢٩٤م	١٠- الناصر محمد (بن قلاوون)
١٢٩٤-١٢٩٦م	١١- العادل كتبغا (العادل زين الدين)
١٢٩٦-١٢٩٩م	١٢- المنصور لاجين (المنصور حسام الدين لاجين)
١٢٩٩-١٣٠٩م	الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثانية)
١٣٠٩-١٣١٠م	١٣- بيبرس الثانى الجاشكير (المظفر ركن الدين)
١٣١٠-١٣٤١م	الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثالثة)
١٣٤١م	١٤- أبوبكر بن الناصر محمد (المنصور سيف الدين)
١٣٤١-١٣٤٢م	١٥- كوجك بن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين)
١٣٤٢م	١٦- أحمد بن الناصر محمد (الناصر شهاب الدين)
١٣٤٢-١٣٤٥م	١٧- إسماعيل بن الناصر محمد (الصالح عماد الدين)
١٣٤٥-١٣٤٦م	١٨- شعبان الأول بن الناصر محمد (الكامل سيف الدين)
١٣٤٦-١٣٤٧م	١٩- حاجى الأول بن الناصر محمد
١٣٤٧-١٣٥١م	٢٠- الحسن بن الناصر محمد (الناصر)
١٣٥١-١٣٥٤م	٢١- صالح بن الناصر محمد (الصالح صلاح الدين)

- الحسن بن الناصر محمد (الناصر) (مرة ثانية) ١٣٥٤-١٣٦١ م
 ٢٢- محمد بن حاجي (المنصور صلاح الدين) ١٣٦١-١٣٦٣ م
 ٢٣- شعبان الثاني (الأشرف ناصر الدين) ١٣٦٣-١٣٧٧ م
 ٢٤- علي بن شعبان (المنصور علاء الدين) ١٣٧٧-١٣٨١ م
 ٢٥- حاجي الثاني (الصالح صلاح الدين) ١٣٨١-١٣٨٢ م

المماليك البرجية

الجدول (٣) سلاطين المماليك البرجية فترة السلطنة

- ٢٦- برقوق (الظاهر سيف الدين) ١٣٨٢-١٣٩٨ م
 ٢٧- فرج بن برقوق (الناصر) ١٣٩٨-١٤٠٥ م
 ٢٨- عبد العزيز بن برقوق ١٤٠٥ م
 فرج بن برقوق (مرة ثانية) ١٤٠٥-١٤١٢ م
 ٢٩- الشيخ محمودي (المؤيد أبو النصر) ١٤١٢-١٤٢١ م
 ٣٠- أحمد بن شيخ (المضفر) ١٤٢١ م
 ٣١- الظاهر ططر ١٤٢١ م
 ٣٢- محمد بن ططر (الصالح) ١٤٢١-١٤٢٢ م
 ٣٣- برسباي (الأشرف سيف الدين) ١٤٢٢-١٤٣٨ م
 ٣٤- يوسف بن برسباي (العزیز جمال الدين) ١٤٣٨ م
 ٣٥- جقمق (الظاهر سيف الدين) ١٤٣٨-١٤٥٣ م
 ٣٦- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين) ١٤٥٣ م
 ٣٧- إينال العلاني (الأشرف سيف الدين) ١٤٥٣-١٤٦٠ م
 ٣٨- أحمد بن إينال (المؤيد شهاب الدين) ١٤٦٠-١٤٦١ م
 ٣٩- خشقدم (الظاهر سيف الدين) ١٤٦١-١٤٦٧ م
 ٤٠- بلباي المؤيدي (الظاهر سيف الدين) ١٤٦٧-١٤٦٨ م
 ٤١- تمرغا (الظاهر) ١٤٦٨ م

- ١٤٦٨ - ١٤٩٥ م
 ١٤٩٥ - ١٤٩٦ م
 ١٤٩٧ م
 ١٤٩٧ - ١٤٩٨ م
 ١٤٩٨ - ١٥٠٠ م
 ١٥٠٠ - ١٥٠١ م
 ١٥٠١ م
 ١٥٠١ - ١٥١٦ م
 ١٥١٧ م
- ٤٢- قايتباي (الأشرف سيف الدين)
 ٤٣- محمد بن قايتباي (الناصر)
 ٤٤- قانصوه (الظاهر)
 محمد بن قايتباي (ثاني مرة)
 ٤٥- قانصوه (الأشرفي)
 ٤٦- جنبلاط (الأشرف)
 ٤٧- طومان باي الأول (العادل)
 ٤٨- قانصوه الغوري
 ٤٩- طومان باي الثاني (الأشرف)





دولة المماليك في مصر وسوريا حوالي سنة ١٣٥٠م

بيبرس قبل توليه السلطنة

- * من هو بيبرس ؟
- * صفاته الشخصية
- * بطل معركة المنصورة
- * البلاء الحسن فى عين جالوت
- * حادثة اغتيال قطز

من هو بيبرس ؟

الظاهر بيبرس هو خامس سلاطين المماليك ، وإن كان بعض المؤرخين ، بل أغلبهم ، يعتبرونه رابع سلاطين المماليك متجاهلين أولهم (شجرة الدر) ، أو متجاهلين ثانيهم (على نورالدين بن أيبك) ذلك الفتى الذي لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره ، الذي رفعه المماليك إلى كرسى السلطنة بعد اغتيال أبيه عز الدين أيبك وتحت وصاية سيف الدين قطز . وقد استحوذ الظاهر بيبرس على اهتمام كافة المؤرخين شرقا وغربا ، تقديرا وإكبارا من مؤرخى العرب المسلمين وبعض الغربيين المنصفين ، وإجبارا من أغلب المؤرخين الغربيين الذين لا يملكون تجاهل سيرة هذا السلطان العظيم ذي الأيادي الكثيرة والإنجازات العظيمة .

ومن بين الذين أرخوا لسيرة الظاهر بيبرس فى التراث العربى الإسلامى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى مؤلفه (الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر) واختصرها شافع بن على فى (المناقب السرية فى السيرة الظاهرية) . والسيرة الثانية كتبها عز الدين محمد بن على بن شداد فى مؤلفه (تاريخ الملك الظاهر) . وممن أرخ له فى سياق التاريخ العام للدولة الإسلامية : اليونينى (ذيل مرآة الزمان) وأبو الفدا (المختصر فى أخبار البشر) والنويرى (نهاية الأرب فى فنون الأدب ، والذهبى (تاريخ الإسلام) وابن كثير (البداية والنهاية فى التاريخ) والمقرئى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) وابن تغري بردي (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) . وهناك من المؤرخين العرب المحدثين من كتب عن الظاهر بيبرس ، منهم من أفرد له أبحاثا مستقلة كمحمد جمال سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، وعبد العزيز خويطر . وكتب عنه آخرون فى دراساتهم العامة .

١٢٢٣م مولده :

ولد الظاهر بيبرس في صحراء الكيبشاك سنة (١٢٢٣م) شمال البحر الأسود ، فهو ينحدر من أصل تركي وفي غارة مغولية على موطنه أسره المغول وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وبيع في أسواق الرقيق بدمشق ، وكان ضخما داكن البشرة ، أزرق العينين له صوت جهوري رنان . وعندما عرض للبيع ، شاهده أمير حماه وتفحصه ، وظنه جلفا خشنا ، لكن الأمير المملوكي علاء الدين إيدكين الصالحى البندقداري لاحظته في السوق وتوسم فيه الذكاء فاشتراه ، فسمي "بيبرس البندقداري" نسبة إليه . وانتهى به المقام في مصر حيث صار مملوكا للملك الصالح نجم الدين أيوب . وتدريب على فنون الحرب والقتال وسرعان ما ظهرت قدراته الحربية الفائقة . ولقد أعتقه نجم الدين أيوب وولاه رئاسة إحدى فرق حرسه الخاصة ، ثم رفعه ليصبح قائداً لفرقة المماليك لما رأى من شجاعته وفروسيته .

١٢٣٩م أول ظهوره في التاريخ :

ويظهر بيبرس أول مرة في التاريخ عام ١٢٣٩م ، وهو فتى في السادسة عشرة من عمره ، معتقلا مع سيده الملك الصالح نجم الدين أيوب في قلعة الأكراد حيث وقع في قبضة الناصر داود صاحب الكرك الذى تبنى قضية نجم الدين أيوب وأعاره الجنود لغزو مصر . وتدرج بيبرس في القيادة العسكرية إلى أن علا نجمه وهو يقود الجيش المصرى في حربه مع قوات الصليبيين . ولقد ظهرت في معركة المنصورة عبقريته العسكرية ، وحول الهزيمة إلى نصر مؤزر ، وانتهى القتال بأسر الملك الفرنسى لويس التاسع ، مما جاء تفصيله في الكتاب الأول من هذه السلسلة (شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر) ، وكما سنرى في الصفحات التالية

صفاته الشخصية

١ - الشجاعة -

أجمعت المراجع كلها على ما كان لبيبرس من شجاعة . فيقول عنه المقرئ في السلوك ج ١ ص ٦٣٧ "وكان شجاعا عسوفاً عجولاً".

وقال عنه أبو المحاسن في النجوم الزاهرة ج ٧ ، الصفحتان ١٧٧ - ١٧٨ " كان رحمه الله ملكاً شجاعاً ، مقداماً غازياً ، مجاهداً مرابطاً ، خليقاً بالملك ، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه " .

ويقول عنه الذهبي "والله يرحمه ويغفر له ، فإن له أياماً بيضا في الإسلام ومواقف مشهورة وفتوحات متعددة" .

وللشجاعة رجالها ، وهم قليل ، وكان لبيبرس من هؤلاء الرجال ، لا يخشى شيئاً ، ولا يرهبه عدو ، حتى وإن كان الجيش الفرنسي الضخم وعلى رأسه الملك وأخوه ، كما سنرى في معركة المنصورة التي صنع منها لبيبرس بطولة ، وأحال الهزيمة نصراً مؤزراً ، وكما سنرى بلاءه في معركة عين جالوت التي قلبت موازين المغول بجحافلهم رأساً على عقب .

٢ - الإحسان -

كما كان لبيبرس من أهل الإحسان والبر . فيقول عنه المقرئ إنه كان يطعم في كل ليلة من ليالي رمضان خمسة آلاف نفس ، ويكسو في كل سنة ستمئة كسوة ، كما خصص وقفاً لدفن الفقراء . وفضلاً عن ذلك ، يخبرنا المؤرخ أبو المحاسن في النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٠ أنه كان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف أردب قمح على الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا ، وأنه رتب لأيتام الأجناد (يعنى أبناء الشهداء) ما يكفي لمطالبهم في الحياة برغم كثرتهم ، ووقف وقفاً يشتري به الخبز ويُفرق على فقراء المسلمين .

٣ - المهابة -

كان للظاهر بيبرس مهابته ، وكان إذا نزل منزلا يلتفت له الجميع ، العدو قبل الصديق ، فضلا عن الجند والرعية ويجمع المؤرخون على أنه هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك . وبغض النظر عن فتوحاته وحملاته العسكرية ، تمكن من قلوب رعيته ، فأحبوه وعظموه ، وانشغل شعراؤهم بسيرته . وأصبح بذلك بطلهم الشعبي وكما يقول عنه عبد الحميد يونس فى مؤلفه : الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي ، إنه "الذى ينتظره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو، ويوزع الأمر بينهم بالقسط " . وقديما قال فيه أحد الشعراء المعاصرين له .

تدبر الملك من مصر إلى يمن إلى العراق وأرض الروم والنوبى

ومكارم الأخلاق كثيرة ، وإنما هناك صفات تضى معانة عن نفسها فى التصاقها بأهلها . وسوف يرى القارئ من خلال رسائله مزايا أخرى تميز بها الظاهر بيبرس ، مثل ازدرائه بأعدائه وسخريته من ملوكهم ، وإقدامه ، وصفات أخرى كثيرة . وتكفى شهادة العدو قبل الصديق ، فتقول عنه دائرة المعارف البريطانية إنه كان مسلما متشددا . وليست هناك مكرمة كتشدد إسلام القائد وحرصه على مكارم الأخلاق ، التى بُعث النبي عليه الصلاة والسلام ليتممها !

١٢٥٠ م بطل معركة المنصورة

فيما يلى الدور الرائع الذى قام به بيبرس فى معركة المنصورة ، وكان آنذاك قائدا لقوات المماليك ولما أصبح سلطانا بعد :

استولى روبرت كونت أرتوا (وهو أخو الملك لويس التاسع الفرنسى) على معسكر المصريين وبات سيده بلا منازع ، وقرر المضى قدما لإحتلال المنصورة والقضاء على الجيش المصرى ،

وترجاه قادة نظام فرسان المعبد وكذلك وليم أوف سالزبرى ، أن ينتظر وأن يأخذ جانب الحيطة إلى أن يأتى الملك والجيش الرئيسى إلى المخاضة للإنضمام إليه ، بيد أنه ضرب بتوسلاتهم عرض الحائط ، بل رمى فرسان المعبد والإنجليز بأوصاف مخزية واتهمهم بالجبن ، وركب رأسه مصيراً على التقدم للإستيلاء على المنصورة والقضاء على الجيش المصرى .

وبعد أن أعاد روبرت كونت أرتوا تنظيم صفوف رجاله ، شن هجوماً جديداً على المصريين الذين كانوا يلونون بالفرار ، ومرة أخرى لم يجد قادة فرسان المعبد والقادة الإنجليز بداً من اللحاق به . على أنه برغم مقتل فخر الدين استطاع قادة المماليك إعادة النظام بين رجالهم ، وتولى القيادة أكثرهم اقتداراً ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري ، ووضع رجاله فى مواقع حساسة داخل مدينة المنصورة ذاتها ، وأمر بترك بوابة المدينة مفتوحة . وهجم فرسان الفرنج على المدينة وتدفعوا داخلها عبر البوابة المفتوحة ، وتقدموا إلى أسوار القلعة ذاتها وفى ذيلهم فرسان المعبد ، وعندئذ خرج المماليك من الشوارع الجانبية الضيقة وانقضوا عليهم كالصواعق ، ولم تتمكن جياد الفرنج من الاستدارة فى شوارع المدينة الضيقة وسرعان ما تبعثروا فى فوضى عارمة ، وتمكن فرسان قليلون من الهرب على أقدامهم إلى ضفاف النيل حيث غرقوا فى مياهه ، بينما تمكن عدد آخر قليل من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، واشتبك فرسان المعبد فى قتال الشوارع ، ولم يبق على قيد الحياة من عددهم البالغ مائتين وتسعين فارساً سوى خمسة فرسان . وهرب كونت أرتوا مع حرسه الخاص واختفى فى

أحد المنازل لكن المصريين سرعان ما اقتحموا عليهم المنزل وقتلوه
عن آخرهم . وكان من بين قتلى الفرسان فى المعركة إيرل سالزبرى
وأتباعه الإنجليز كلهم تقريبا ، وكان بطرس البريتونى معهم فى
المقدمة وأصيب بجرح فى رأسه لكنه تمكن من الفرار من المدينة على
ظهر جواد وأسرع عائدا ينذر الملك .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)

(للمؤرخ الإنجليزى السير ستيفن رانسيمن ، ج ٣ ص ٣١٨-٣١٩)

ولقد انتهت معركة المنصورة بهزيمة ماحقة للجيش الفرنسى ولم تمض أيام قلائل حتى
أسر الملك لويس التاسع نفسه بعدما تولت شجرة الدر حكم مصر وأخفت نبأ موت زوجها
حرصا على معنويات الجنود المصريين . وبذا ارتفع نجم بيبرس بهذا الإنجاز العسكرى
الرائع

١٢٥٣م ؟ فرار بيبرس إلى سوريا

وأثناء حكم السلطان المملوك عز الدين أيبك ، زوج شجرة الدر ، أظهر أيبك من القسوة
والغدر حيال رفاقه المماليك ، وخاصة البارزين منهم مثل فارس الدين أقطاي زعيم
المماليك البحرية ، ما دفع بيبرس وبعض أمراء المماليك إلى الفرار من مصر إلى سوريا ،
وظل متنقلا بين دمشق وحصن الأكراد حتى تولى سيف الدين قطز حكم مصر سنة
١٢٦٠م ، فبعث إليه بيبرس يطلب منه الأمان والعودة إلى مصر ، فأجابه إلى طلبه ،
وأحسن استقباله وأنزله دار الوزارة وأقطعته قليوب وما حولها

١٢٦٠م البلاء الحسن فى عين جالوت

اشترك بيبرس مع قطز فى معركة عين جالوت الشهيرة سنة ١٢٦٠م وأبلى فيها بلاء حسناً ، وكان من أبطالها الشجعان المغاوير.

والمعروف أنه لم يكن هناك شئ يوقف المغول فى اجتياحهم من أقصى شرق آسيا حتى غربها ، وحتى دخولهم أوروبا من شرقها ، واجتياحهم بغداد وقتلهم الخليفة العباسى المستعصم ، ثم دخولهم سوريا وزحفهم خلال فلسطين ، حيث تصدى لهم السلطان سيف الدين قطز فى عين جالوت .

فى معركة عين جالوت (١٢٦٠م)

"نما إلى علم قطز وهو فى عكا أن كيتبوغا قد عبر الأردن ودخل سهل الجليل الشرقى ؛ فقاد جيشه على الفور باتجاه الجنوب الشرقى ، خلال الناصرة ، وفى يوم ٢ سبتمبر وصل عين جالوت ، أى "آعيون جوليات" حيث سبق وأن تحدى الجيش المسيحى صلاح الدين فى عام ١١٨٣م . وجاء الجيش المغولى فى الصباح التالى بصحبة فرسان كتائب جورجيا وأرمينيا المسيحيين ؛ لكن كيتبوغا كان يفتقر إلى الكشافين ، إذ كان السكان المحليون غير ودودين حياله ؛ ولذا لم يكن يعرف أن الجيش المملوكى كله على مقربة . وكان قطز على دراية تامة بتفوقه العددي ، ولذا أخفى قواته الرئيسية فى التلال القريبة ولم يُظهر سوى الطليعة التى يقودها بيبرس . ووقع كيتبوغا فى الفخ . إذ قاد رجاله كلهم فى هجوم على العدو الذى رآه أمامه ؛ فتقهقر بيبرس فى لمح البصر داخل التلال والأعداء يتعقبونه فى حماس مثقد ،

وفجأة وجد الجيش المغولى نفسه وقد حوَصِر كله وقاتل كيتبوغا قتالا رائعا ، وبدأ المصريون يتأرجحون ، ودخل قطز نفسه المعركة لتنظيمهم ؛ على أنه بعد ساعات قليلة اتضحت آثار تفوق المسلمين العددي . وتمكن بعض رجال كيتبوغا من شق طريقهم هربا من المعركة ، لكن كيتبوغا نفسه رفض أن يشهد هزيمته ؛ فكان وحيدا أو يكاد عندما قُتل حصانه ووقع أسيرا ، وأنهى أسره المعركة . واقتيد فى القيود الى السلطان الذى راح يسخر من سقوطه ؛ فرد فى تحدٍ متنبئا بانتقام مخيف من المنتصرين ، ومتفاخرا بأنه ، على خلاف أمراء المماليك ، دائم الإخلاص لسيدته . فضربوا عنقه .

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة فى التاريخ . ومن الحق أن الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل تسببت فى أن يصبح الجيش المغولى فى سوريا من الضالة بحيث لم يقدر ، فى غيبة الكثير من الحظ الحسن ، على الإضطلاع باخضاع المماليك ، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثة لأمكن استعواض الهزيمة ؛ غير أن تصاريف التاريخ قد حالت دون تحويل حكم التاريخ المتخذ فى عين جالوت تحويلا معاكسا . لقد كان النصر المملوكى إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قُدر للمغول أن يتوغلوا داخل مصر ، لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين فى آسيا غفيرة بصورة فائقة بحيث تستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر لهم أن يكونوا هم الجنس الحاكم . ولو قُدر لكيتبوغا المسيحي الانتصار ، لكان فى ذلك تشجيع لتعاطف المغول حيال المسيحيين ، ولأصبح المسيحيون

الآسيويون فى مركز القوة للمرة الأولى منذ الهرطقات الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العبث أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك ، ولا يستطيع المؤرخ إلا أن يقص ما قد حدث فعلا . لقد جعلت عين جالوت من سلطنة مصر المملوكية القوة الرئيسية فى الشرق الأدنى للقرنين التالين ، وحتى بروز الإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوطنيين فى آسيا ؛ ذلك أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العنصر المسيحى فإنها سرعان ما حفزت المغول الباقين فى غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام . كما أسرعت بزوال الدويلات الصليبية ؛ إذ أن المسلمين المنتصرين ، كما تنبأ السيد الأعظم للنظام النيوتونى ، باتوا تواقين للإنتهاء من أعداء العقيدة .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)

(السير ستيفن رانسيما ، ج ٣ ص ٣٦٦-٣٦٧)

وهكذا كانت عبقرية بيبرس ، وقيادته للطليعة ، وانسحابه السريع على عجل لدى ظهور الأعداء ، وبلائه فى الحرب البلاء الحسن ، كل ذلك أسهم بدرجة كبيرة فى إحراز النصر .

١٢٦٠م حادثة اغتيال قطز

أورد المؤرخ العربى أبو الفدا ، وكذلك المقرئى فى مؤلفه (السلطين) فى الجزء الأول ، أن السلطان سيف الدين قطز ، بعد انتصاره الكبير على المغول فى عين جالوت ، انطلق فى رحلة العودة الى مصر تكلله أكاليل الغار والمجد ، وكان قطز يرتاب فى أكثر قواده كفاءة وهو بيبرس ، وظلت الريبة تتزايد فى صدر قطز يوما بعد يوم . وقد طلب

بيبرس أن ينصّب واليا على حلب ، لكن قطز رفض طلبه بصورة جافية ، مما أثار حفيظة بيبرس، لكنه لم ييدها ، وكنتمها في نفسه وانتوى الإنتقام من السلطان قطز .

وفي يوم ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م جاءت بيبرس فرصته ، إذ كان الجيش المنتصر على المغول يقترب من حافة الدلتا ، وذهب قطز للتريض وصيد الأرناب البرية ، ومعه بعض خاصّة من أصدقائه وأمرائه وفيهم بيبرس . وعندما ابتعدوا عن المعسكر بمسافة غير قصيرة ، اقترب أحد الأمراء من السلطان ، تدل هياّته على أنه سيطلب شيئا من السلطان قطز ، وبينما كان ممسكا بيد السلطان متهينا لتقبيلها ، انقض عليه بيبرس من الخلف وطعن قطز بسيفه في ظهره . وانطلق المتآمرون على جيادهم إلى المعسكر ليعلنوا نبا مصرع السلطان . وكان أقطاي ياور السلطان في الخيمة الملكية ، فدخل عليه المتآمرون وأعلنوه بأنهم قتلوا السلطان ، فسأل أقطاي من فوره أيهم الذي ارتكب القتل ، فاعترف بيبرس بأنه هو الذي قتله ، فدعاه أقطاي إلى الجلوس على عرش السلطان ، وكان أول من قدم له فروض الولاء والطاعة ، وحذا قادة الجيش كلهم حذوه معربين لبيبرس عن فروض الولاء والطاعة . وهكذا عاد بيبرس إلى القاهرة سلطانا .

ونفهم من هذه الرواية ، دون عناء كبير ، وجود مؤامرة لإغتيال السلطان سيف الدين قطز اشترك فيها أمراء المماليك الذين رافقوه ؛ وأغلب الظن أن أقطاي وبيبرس كانا بمثابة الرأس المدبر بالتعاون مع باقى الأمراء والقادة . ونعلم كذلك أن قيام دولة المماليك شهد صراعات دموية على السلطة منذ أن اغتيل السلطان توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب آخر ذرية الأسرة الأيوبية ، وقيل إنه أثار حفيظة المماليك بسوء تصرفه وطيشه وتخطيطه لإستبعادهم واستبدالهم بأبناء الشمال ، فاغتالوه . ولا شك أن كان للمماليك أسباب أخرى لها ما يبررها ، مما جاء تفصيله في الكتاب الأول من هذه السلسلة (شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر) .

ولا يخفى على أحد أن التآمر والإغتيال قديمان قدم الإنسان على هذه الأرض وحتى يومنا هذا ، وسوف يظل من سمات السلوك الإنسانى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد لصقت بالمماليك هذه الصفة ، الفوز بالسلطنة عن طريق الإغتيال ، ويجمع الكافة ، شرقا وغربا ، على استنكار تلك الطريقة الآثمة فى القفز إلى كرسى الزعامة ، ويزدرونها ويعتبرون المماليك قتلة مجرمين آثمين وحوش غير متحضرين .

وبينما نستنكر أسلوب التآمر والإغتيالات ، نلفت النظر إلى أن المماليك لم يأتوا بجديد ، ولم يستحدثوا هذه الوسيلة البشعة وذلك الغدر ببعضهم البعض . فالأثرة والأنانية والتطاحن والقتل من أجل السيطرة كامن فى الإنسان منذ أن قتل أحد ولدى آدم عليه السلام أخاه غيرة وحسدا وحقدا . ولو أننا استعرضنا مسيرة الإنسان على مر التاريخ لوجدنا الكثير من الأمثلة على ذلك .

وتاريخ الإمبراطورية الرومانية حافل بتلك الأمثلة ، أبرزها وأشهرها تأمر بروتوس ورفاقه وقتلهم يوليوس قيصر . وفيما يلي حالات الإغتيال التى حدثت :

فى مصر الرومانية :

- ✱ فى سنة ٤٨ قبل الميلاد اغتال بتولمى الثامن Ptolemy XIII بومباي Pompey .
- ✱ وفى سنة ١٩ م اغتال تيباريوس Tiberius جيرمانيكوس Germanicus بالسم .
- ✱ وسنة ٢٣ م اغتال سيجانوس Sejanus وعشيقتة ليفيلا Livilla ، زوجها دروسوس Drusus .

- ✱ وفى سنة ٣٧ م اغتال كاليجولا Caligula تيباريوس Tiberius خنقا .
- ✱ وفى سنة ٣٨ م اغتال كاليجولا ، جيميلوس Gemellus بعد تبنيه .

وقد أوردنا هذه الحالات على سبيل المثل ، لا الحصر ، على الإغتيالات فى الإمبراطورية الرومانية ، ولو سبرنا أغوار الدولة الإسلامية ذاتها لوجدنا الآتى :

فى الدولة الأموية:

✱ تأمر معاوية بن أبى سفيان وقتل الإمام الحسن بن على بالسم ، ناكثا ما اشترطه على نفسه.

✱ وتأمر يزيد بن معاوية وقتل الإمام الحسين بن على شر قتلة ومثل به .

✱ وتأمر سليمان بن عبد الملك وقتل زعيم العلويين ، أبو هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، بعد أن دعاه وأعطاه الأمان ودس له السم فى طعامه .

فى الدولة العباسية:

✱ تأمر هارون الرشيد نفسه وقتل امام العلويين يحيى بن محمد بعد أن أعطاه الأمان .

✱ وتأمر المأمون بن هارون الرشيد ، وقتل أخاه الأمين وتولى الخلافة مكانة عام ٨١٣ م .

فى دولة الأغالبة بشمال أفريقيا والدولة الفاطمية:

✱ اغتال أبو مضر زيادة الله الثالث والده أبو العباس عبد الله الثانى سنة ٩٠٣ م .

✱ وفى الدولة الفاطمية اغتيل الوزير الفاطمى الأفضل سنة ١١٢١ م .

✱ وتأمر حسن الصباح صاحب قلعة الموت وزعيم الحشاشين ولم يتورع عن اغتيال ابنه .

وقائمة اغتيال القادة غدرا وغيلة طويلة ، ولن نتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وآخر ما وصل إلينا من غدر الإنسان اغتيال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

جون فيتزجيرالد كنيدى فى أوائل ستينات القرن العشرين ، ولو أن المتآمرين لا يزالون مجهولين ، وأغلب الظن أنهم أحكموا تأمرهم بحيث دفنت أسماؤهم مع ضحيتهم فى قبره

ونحرص مرة أخرى على التذكير بأننا لا ندافع عن أسلوب التآمر والإغتيالات ولا نؤيده ، وإنما نحرص بالأحرى على التذكير بأن المماليك لم يأتوا بجديد ، وبدلاً من ازدرائهم وتحقير أفعالهم ، يكفى أن نلقى عليهم تلك النظرة المشفقة ، ثم نلتفت إلى انجازاتهم الرائعة.

وليست هذه محاولة لتبرئة بيبرس من التآمر على اغتيال سيف الدين قطز ، وإنما هى دعوة إلى التمعن والتدبر فى الخلفية التاريخية التى صحبت قيام دولة المماليك ، جنباً إلى جنب مع إنصاف كل شخصية من الشخصيات المملوكية ، خاصة وأن المعروف أن المماليك نشأوا فى أجواء طفولة الخوف والرعب ، وحرموا من النشأة الأسرية الطبيعية كشأن باقى الأطفال .

وليس كل سلاطين المماليك اعتلوا العرش عن طريق الإغتيال وخاصة فى المراحل الأولى . وعلى سبيل المثال ، نودى بعلّى بن أيبك سلطاناً بعد مصرع والده ، ولم يقتله قطز عندما كان وصياً عليه ، وإنما رأى أنه صلب لا يصلح للقيام بأعباء السلطنة أمام تهديد المغول ، ففعل ما أشار به القائمون على البلاد ووصيتهم بتنحيته جانباً وتولى السلطنة بدلاً منه . وكذلك فعل قلاوون مع السعيد بن الظاهر بيبرس . فلم يلجأ أى منهما إلى القتل وإن شغلا كرسي السلطنة دون اغتيال السلطان الشرعى أو الوريث .

ومن ناحية أخرى ، يحيط الغموض بما رواه المؤرخون عن سبب الجفوة بين بيبرس وقطز ؛ إذ يقول هؤلاء المؤرخين إن بيبرس " ... ظل متنقلاً بين دمشق وحصن الأكراد حتى تولى سيف الدين قطز حكم مصر سنة ١٢٦٠م ، فبعث إليه بيبرس يطلب منه الأمان والعودة إلى مصر ، فأجابه إلى طلبه ، وأحسن استقباله وأنزله دار الوزارة وأقطعته قليوب

وما حولها ... " وظلت العلاقات بين الإثنين قوية حميمة ، نكاد نصفها بالصدقة والثقة المتبادلة . ثم يخبرنا المؤرخون أن " قطز كان يرتاب في أكثر قواده كفاءة وهو بيبرس ، وظلت الريبة تتزايد في صدر قطز يوما بعد يوم ... " دون أن يذكر المؤرخون سببا لتلك الريبة الآخذة في التزايد ... ثم يقولون " ... وقد طلب بيبرس أن ينصب واليا على حلب ، لكن قطز رفض طلبه بصورة جافية ، مما أثار حفيظة بيبرس، لكنه لم يبدها ، وكتمها في نفسه وانتوى الانتقام من السلطان قطز " ولا نعرف سببا لتلك "الجفوة" بين الرجلين والتي تجعل قطز " ... يرفض طلبه بصورة جافية ... " . تلك أحداث تفتقر الى تسلسل طبيعي منطقي يربطها ، وأقاويل المؤرخين مبتورة ، والمؤرخ الحصيف هو الذي يثبت الأحداث التي حدثت ، أما الأقاويل التي قيلت على لسان قائلها ، فلا بد أن ترتبط بالأحداث في تسلسلها ، مثل صيحة قطز في معركة عين جالوت "وا إسلاماه" ... سمعها عشرات الجنود المتداعين ، وربما المئات ، في موقف يطلبها ، موقف قائد يشاهد اقتراب هزيمة جنوده وضياح أمله في النصر .

ومهما يكن الأمر ، فالثابت أن الأمور استقرت في مصر للسلطان الجديد بيبرس الذي اطمأن إلى أنه أحكم قبضته على السلطة في مصر . أما في دمشق ، فكان هناك مملوك آخر استولى على السلطة هو سنقر الحلبي الذي كان يتمتع بالشعبية في دمشق . وسنرى كيف تمكن بيبرس من هزيمته في محاولاته الناجحة لتوحيد العالم العربي الإسلامي للتصدي للصليبيين والمغول ومن والاهم .



الملك الظاهر

رکن الدین بیبرس الأول

البندقداری الصالحی

★ ببيرس السلطان

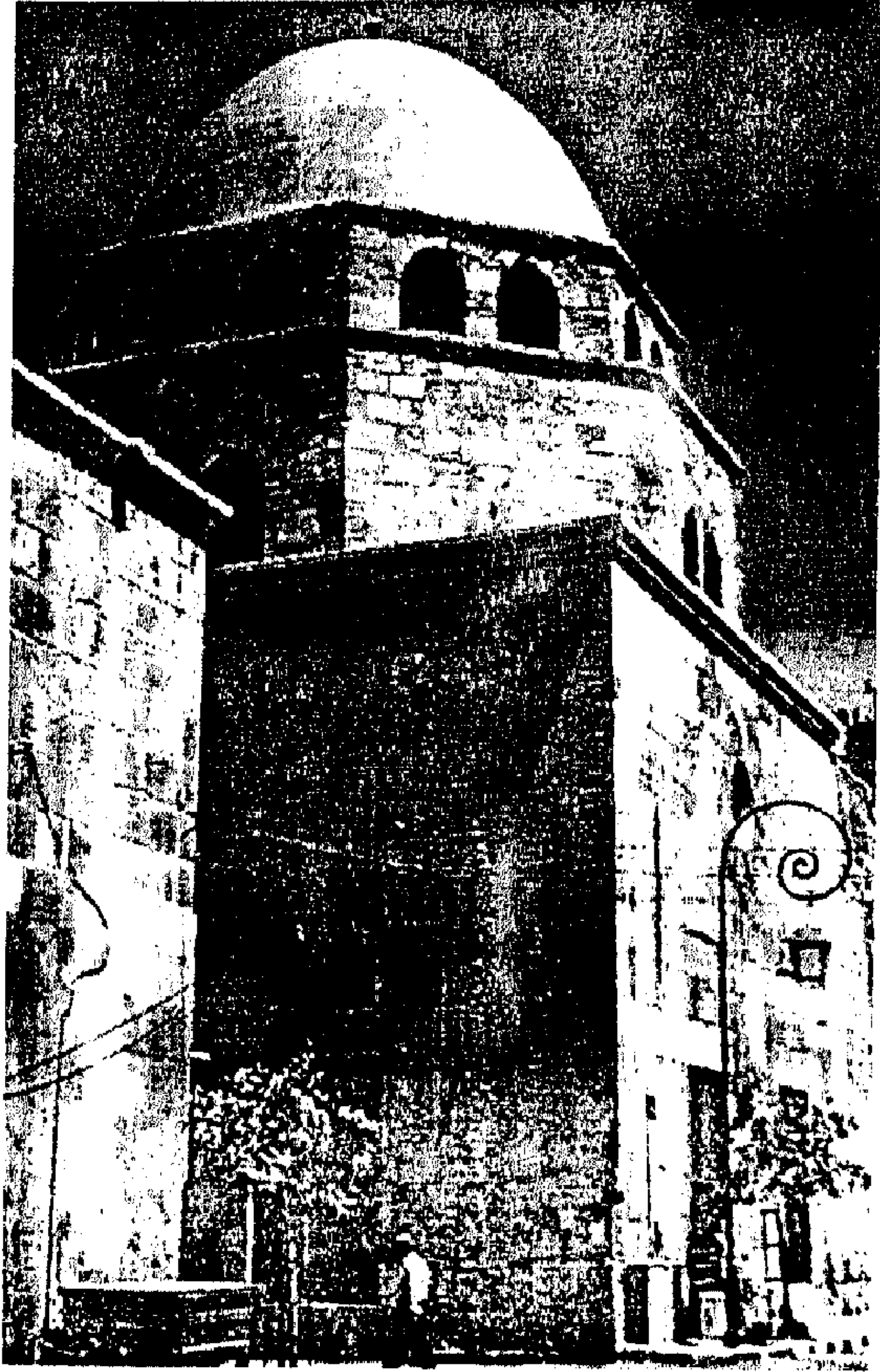
★ رجل الدولة

★ السياسى المحنك

– الدبلوماسية

– صليبيون اختاروه لحمايتهم

★ إحياء الخلافة العباسية



ضريح الظاهر بيبرس ، دمشق ، سوريا

بيبرس السلطان

كانت مصر تمر بفترة عصيبة فى ذلك الوقت على الرغم من الانتصار الباهر على المغول فى عين جالوت . فلا شك أن بيبرس كان يتوقع عودة المغول وهم أكثر عزيمة وتصميما على الانتقام لأول هزيمة لهم بعد اجتياحهم لأكبر قارة ، قارة آسيا ، واحتلالهم لأجزاء من أوروبا ، فلا بد من الاستعداد لهم ، بينما الصليبيون يلحقون جراحهم التى أصابت كبرياءهم بعد هزيمتهم فى المنصورة وأسر ملك فرنسا وجيشه ، وبعد استيلاء المماليك على دمياط للمرة الثانية ، وعلى القدس التى ضاعت منهم مؤخرا وانتزعها منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب . هما عدوان شرسان ، المغول كالثور الهائج الذى لا يعرف سوى طعم الدماء ، والصليبيون الذين لا يعرفون سوى الحقد على الإسلام دون سبب أو مبرر .

عقول من الشرق غابت عنها ملكة الفكر ، وها هم منقسمون ، المغول أبناء جلدتهم من المغول الذين اعتنقوا الإسلام . وعقول من الغرب لطخها الحقد الأعمى الذى لا يرى ، ولا يفهم التعاليم السمحاء التى أمرهم بها المسيح .

لا بد إذن من إعداد العدة للذود عن أرض الكنانة وعن الشرق .

وما النصر إلا من عند الله العلى القدير الذى أمر بأن يعد المسلمون ما استطاعوا من قوة ليرهبوا أعداء الله وأعدائهم . ومصر لا يعوزها مال ولا رجال ، وإنما يعوزها إيمان وعمل ، والإيمان بعون الله راسخ ، والعمل بإذن الله سيجرى على قدم وساق . هذا ما اهتدى إليه بيبرس بعد أن تربع على عرش السلطنة .

وكانت الشهرة الغالبة للسلطان بيبرس تنحصر فى عاملين اثنين: الأول ، حملاته العسكرية المنتصرة على الصليبيين والمغول وأولياء المغول ، والثاني ، انجازاته الإدارية

الداخلية فى شتى مناحى الحياة المصرية والسورية . وما يزال العوام فى مصر يرددون "سيرة بيبرس" الشعبية التى تعدد بطولاته وانتصاراته على الصليبيين والمغول .

ولم يكد بيبرس يستقر على عرش السلطنة حتى بدأ عهداً جديداً وصفحة مشرقة فى تاريخ مصر، وبدأ فى إدارة الدولة من خلال الخاصة والعامة ، فقرّب إليه كبار الأمراء ورجال الدولة ، ومنحهم الألقاب والإقطاعات الواسعة ، كي يعينوه على إعداد العدة وتنظيم شؤون البلاد .

رجل الدولة

تقوم الدول على دعائم معينة لا غنى عنها . تقوم أولاً على الإدارة الحسنة المخلصة ، وهى دعامة لا بد لها من قادة مخلصين يحفزهم ويرشدهم إخلاصهم الشديد لبلدهم . وتقوم كذلك على تفانى أبنائها ، إذ بدون سواعدهم تهوى الدولة وتنزلق وتضعف وتستشري فيها الأمراض الاجتماعية . فلا بد من حفز أبناء البلاد وغرس القيم المتوارثة والأمجاد المتواصلة فى صدورهم وعقولهم . كما تقوم الدول على مواردها ، ومصر لا تتفد مواردها ، ففيها النيل الواعد ، وجبل بعد جبل صاعد . وحبها الله بسماء صافية ، وجنات وزروع ، ومقام كريم ، وبحار ومرافئ ومعادن ، وغير ذلك مما لا يخفى على القارئ الفطن النجيب .

وشمر بيبرس عن ساعده ، وقد أدرك بعبقريته أن تلك المزايا وغيرها كفيلة بأن ترتقى بمصر لتتبوأ الصدارة بين الدول ، فشق القنوات ، وأدخل التحسينات على الموانئ . ووجه عنايته إلى تخفيف الأعباء عن الأهالي ، فأعفاهم من الضرائب الزائدة ، وأطلق المحبوسين من السجون ، وجدّ فى استرضاء رعيته ، والتفت إلى تنظيم الأمور الإدارية ، والقيام بكثير من الإصلاحات الداخلية ، واستحدث بعض الوظائف الإدارية ، والعناية بديوان الإنشاء

عناية فائقة ، وبلغ من دقته أن أخبار الشام كانت تصله مرتين في الأسبوع ، وصار على علم بما يدور في دولته المترامية وكأنه في كل مكان منها ، وفي كل وقت .

لقد كان بيبرس بحق إداريا من الطراز الأول ، فضلا عن عبقريته العسكرية والدبلوماسية .

وكان البريد من أولويات اهتمامه ، ويروى ابن فضل الله العمري كاتب الإنشاء في دمشق أن بيبرس طلب منه مواصلته بالأخبار ، وموافاته بما يتجدد من أخبار التتار والفرنج قائلا له :

"إن قدرت أن لا تبيتني كل ليلة ولا تصبحني إلا على خبر فافعل!" . وبذا أقام بيبرس شبكة بريدية ضخمة ، أنفق عليها الأموال الطائلة ، بحيث كان البريد ينتقل بين القاهرة ودمشق في غضون ما لا يزيد على أربعة أيام ، وهذا أمر لم يتحقق بعد في القرن العشرين بطائراته النفاثة وتقدمه العلمي والتكنولوجي .

وأدخل بيبرس تعديلات على النظام القضائي في مصر . فكان أول حاكم في مصر عين قضاة يمثلون المدارس الفقهية الإسلامية الأربعة . وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه ، وقام بترميمه وتعميره بعد الإهمال الذي لحقه في العصر الأيوبي ، إذ نقل الأيوبيون اهتمامهم إلى جامع عمرو بدلا من الجامع الأزهر لما كان يرمز إليه من الحكم الفاطمي قبلهم .

وأقام بيبرس عددًا من المؤسسات التعليمية ، فأنشأ المدرسة الظاهرية بالقاهرة ١٢٦٢م التي استغرق بناؤها عامين ، وجعل بها خزانة كتب كبيرة ، وألحق بها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأنشأ بدمشق مدرسة عرفت باسمه ، وشرع في بنائها سنة ١٢٧٧م ، ولا تزال هذه المدرسة قائمة في دمشق حتى الآن ، وتضم مكتبة ضخمة تُعرف بالمكتبة الظاهرية .

وأنشأ في القاهرة جامعاً عظيماً عرف باسم جامع الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧م ، ولا يزال قائماً حتى اليوم ، لكنه تعرض لإهمال شديد .

ويذكر له أنه كان أول من جلس للمظالم من سلاطين المماليك ، فأقام دار العدل سنة ١٢٦٣م ، وخصص يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع يجلس فيهما للفصل في القضايا الكبيرة يحيط به قضاة المذاهب الأربعة ، وكبار الموظفين .

السياسي المحنك

الدبلوماسية

في عام ١٢٦١م أرسل بيبرس سفارة الى الملك الصقلي مانفريد Manfred ، أعقبتها سفارات أخرى إلى إيطاليا . وفي ١٢٦٤م قام تشارلز أوف أنجو Charles of Anjou ، الذي أصبح فيما بعد ملك نابولي وصقلية ، بإرسال سفارة الى القاهرة تحمل رسائل وهدايا ، اعترفا بقوة بيبرس ونفوذه . كما عقد بيبرس معاهدات تجارية مع عواهل يبعدون عن مصر مثل جيمس الأول James I of Aragon في أراجون والفونسو العاشر في كاستيل .

ويرد في كتاب : (الظاهر بيبرس ، اسهام في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر) لمؤلفه : بيتر توراو - (ترجمة محمد جديد) ما يلي :

"وبالإضافة إلى ما كان يمتاز به بيبرس من مهارة قتالية ودهاء عسكري ، فإنه كان كذلك على قدر كبير من الدبلوماسية . فعقد اتفاقيات ومعاهدات دولية ، فاکتسب الحلفاء ، وقويت شوكته . من ذلك أنه تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية التي تدين بالآرثوذكسية ، وهي العدو للكاتوليكية الوافدة مع الصليبيين ، وأغدق الهدايا على بيزنطة وحصل من الإمبراطور ميخائيل

الثامن باليولوغوس Michael Palaeologus على إذن
 بمرور سفينتين تحملان الممالك عبر مضيق البوسفور إلى البحر
 الأسود ذهابا وإيابا مرة في كل سنة . كما أقام علاقات ودية طيبة
 مع ملك جزيرة صقلية ، شارل أوف أنجو Charles
 d'Anjou ، وحدث أن عز الدين كيكاووس زعيم سلاجقة الروم
 استنجد ببيرس في صراعه مع أخيه ركن الدين قلج أرسلان
 المتحالف مع المغول ، فأرسل له ببيرس العسكر لمساعدته . كما
 تحالف ببيرس مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية المغولية ، وهو
 أول من اعتنق الإسلام من ذرية جنكيز خان . "

صليبيون اختاروه لحمايتهم

حاول البابا جريجورى العاشر تسيير حملة صليبية جديدة ، وعقد من أجل ذلك مجمع
 ليون عام ١٢٧٤م ، ولكن دون جدوى . إذ لم يستجب له أحد من عوالم العالم المسيحي
 استجابة فعلية . وكان هيو ملك قبرص حريصا على الحفاظ على الهدنة الموقعة بينه وبين
 الملك الظاهر ببيرس . وفى سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت .
 ذلك أنه بعد موت جون الثانى الإبلينى ، انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ،
 ملكة قبرص الأرملة التى تركت أرملة عذراء فى سنة ١٢٦٧م ؛ على أنها كانت كارهة
 لعذريتها لغيبة العفة ، وسرعان ما انفصلت عن تلك العذرية وأثرت أن ترتضى فى الرذيلة
 وباتت علاقتها بجوليان أمير صيدا على كل لسان ، مما أدى إلى صدور مرسوم بابوى
 حثها بشدة على الزواج مرة أخرى . وفى ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها (بيروت)
 لزوج انجليزى يطلقون عليه هامو الأجنبى ، وربما كان أحد رفاق الأمير إدوارد . وكان
 زوجها هذا يرتاب فى الملك هيو ملك قبرص ، فعندما حضرته الوفاة فى العام التالى وضع
 زوجته وإقطاعيتها تحت حماية السلطان ببيرس . وحاول الملك هيو الفوز بالأرملة

وإعادتها إلى قبرص وتزويجها من رجل اختاره لها . وعلى الفور استشهد السلطان بالعهد الذى أوصى به زوجها الراحل هامو وطلب عودتها . ولم تستطع المحكمة العليا مساعدة هيو الذى اضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث تم تعيين حارس مملوكى لحمايتها . ولم يتمكن الملك هيو من مواصلة سيطرته على إقطاعية بيروت إلا بعد وفاة بيبرس بوقت طويل . وتزوجت إيزابيلا زوجين آخرين قبل وفاتها فى سنة ١٢٨٢م تقريبا . وفيما يلى رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى فرنج عكا بشأن تلك المسألة :

رسالة بيبرس إلى فرنج عكا

من أجل ملكة بيروت

هذه الملكة بينى وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جامى . وعادتها إذا سافرت تستودعنى بلادها وفى هذه المرة ما سيرت لى رسولا، ولا بد من حضورها وأن تتوجه رسلى وتشاهدها وإلا أنا أحق ببلادها .

(تاريخ ابن الفرات ج ٧ - ٣٥)



النمر

شعار الظاهر بيبرس

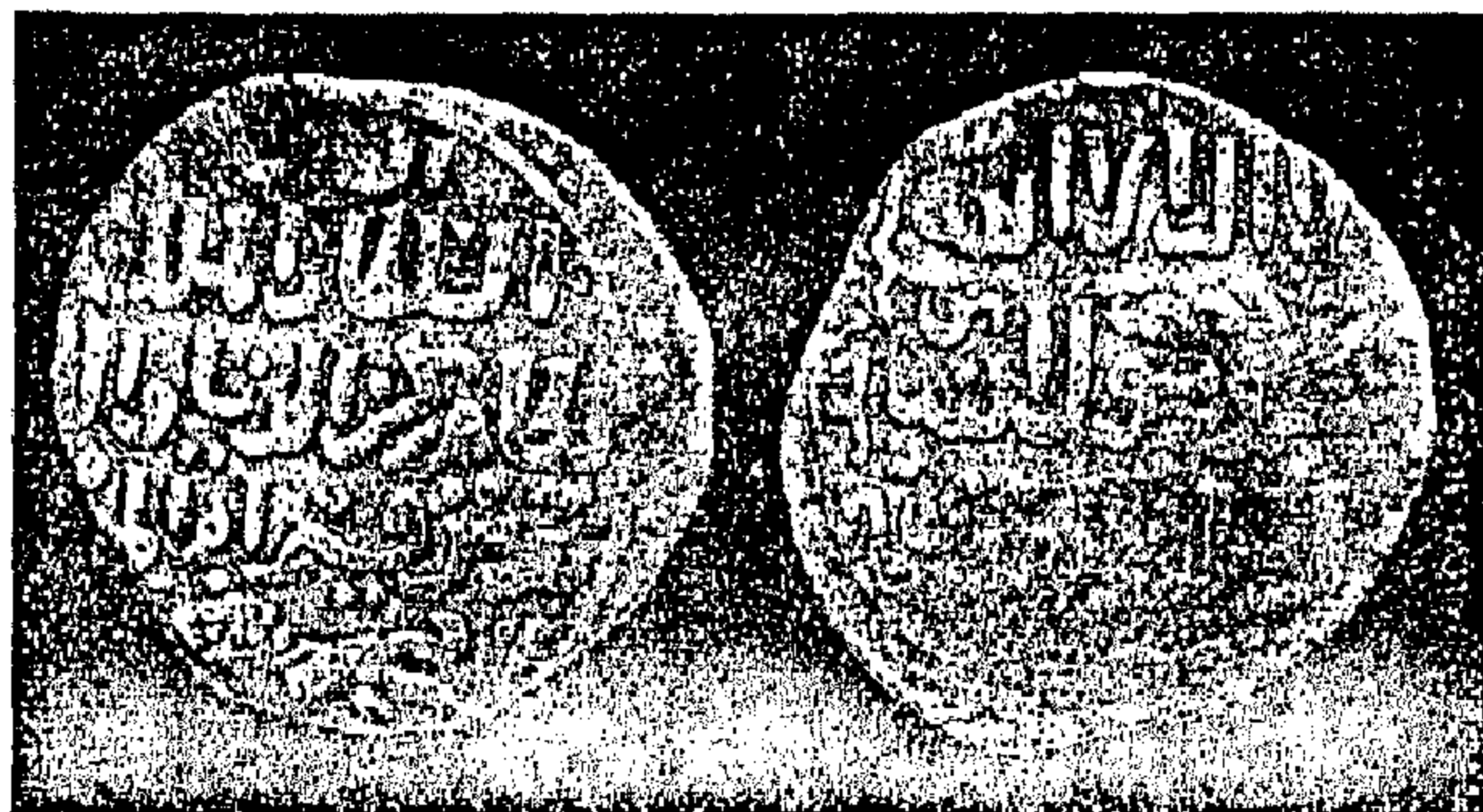
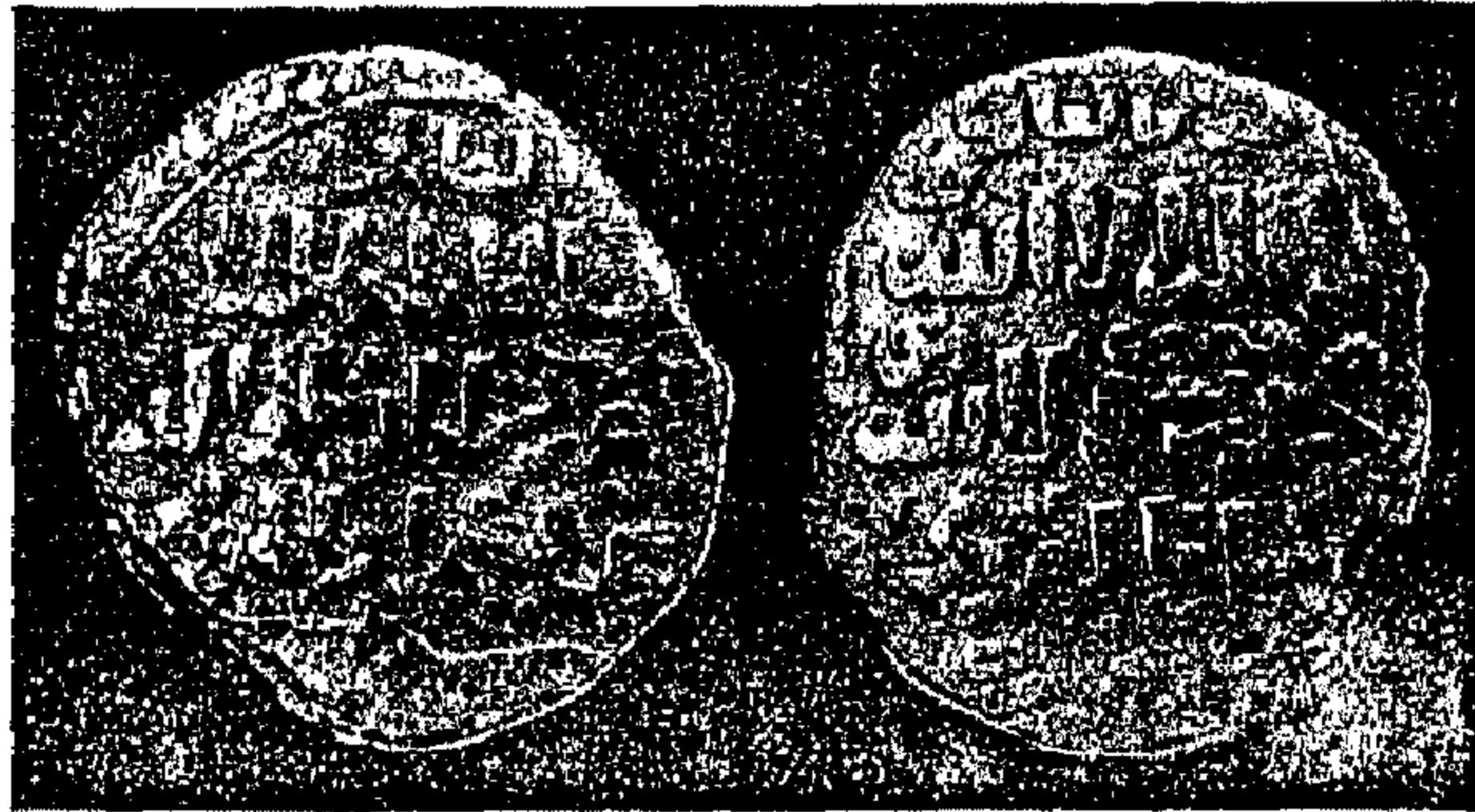
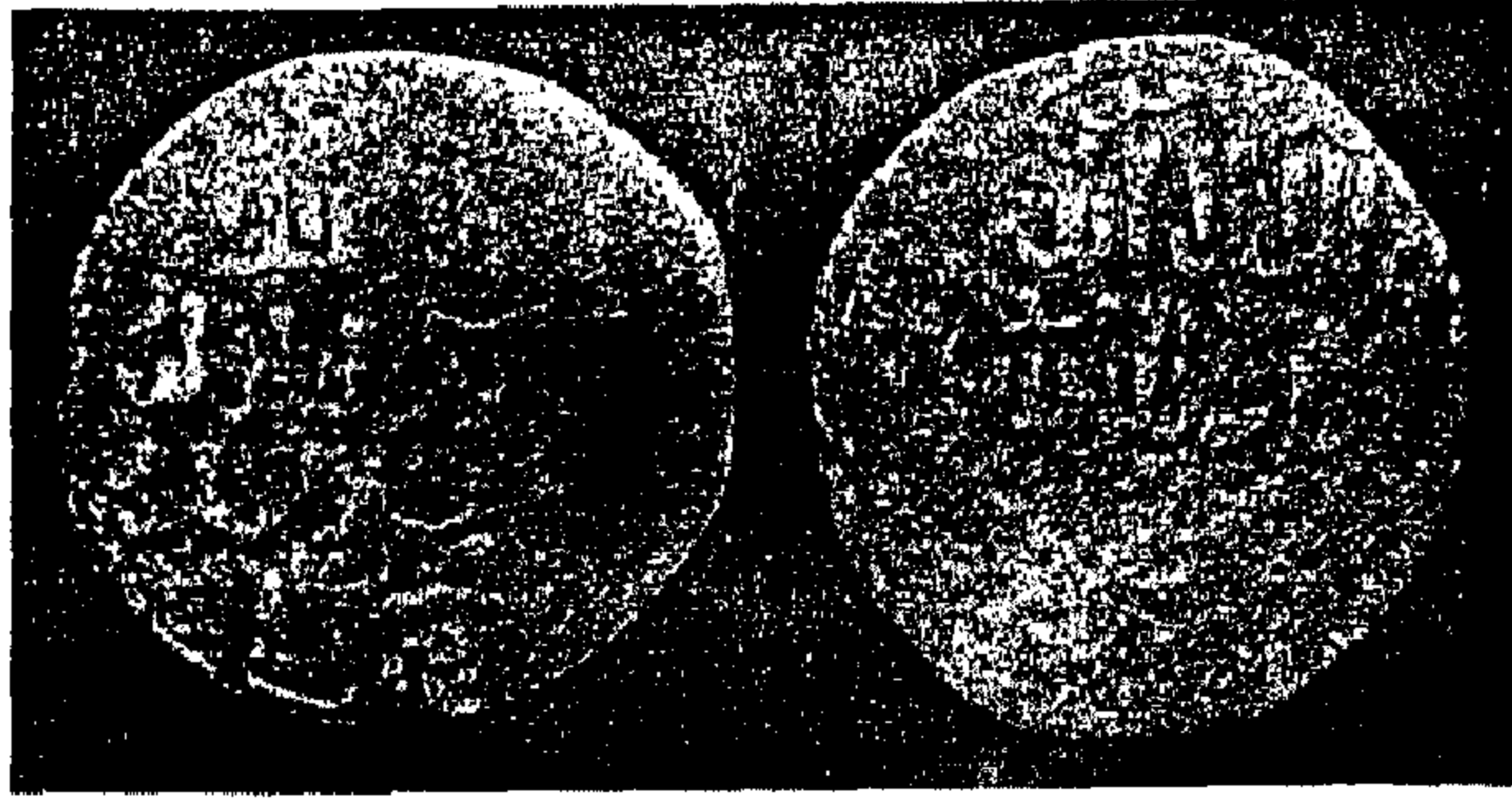


مخطوطة تاريخ ما وراء النهر (أوتريمييه)
 نجيم دو تير (١٣٣٧م)
 المكتبة الوطنية الفرنسية

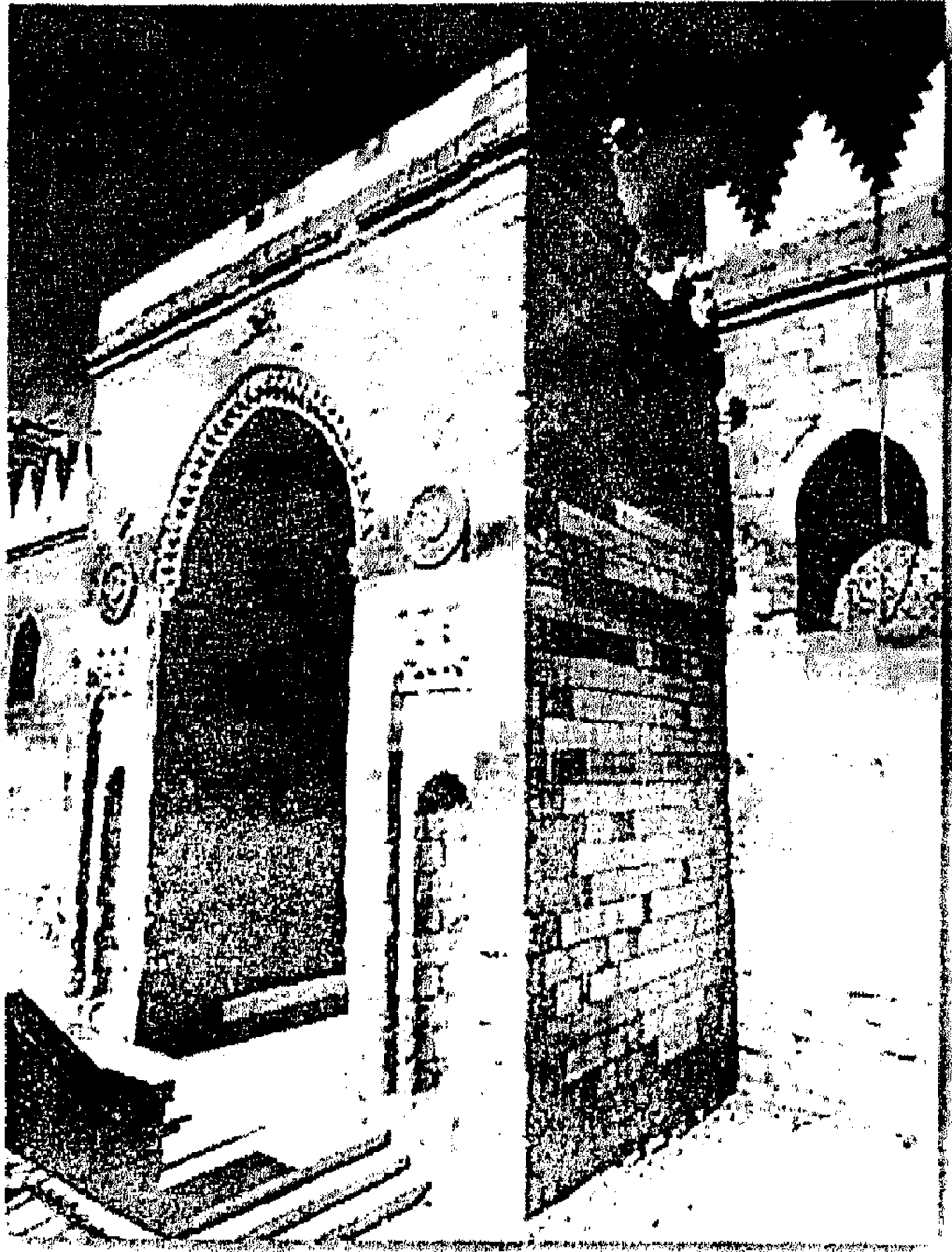
يلاحظ ظهور شعار النمر على دروع الفرسان
 ونفس النمر على العملة النقدية



عملة باسم السلطان الملك الظاهر بيبرس
وقد ظهر عليها شعار النمر



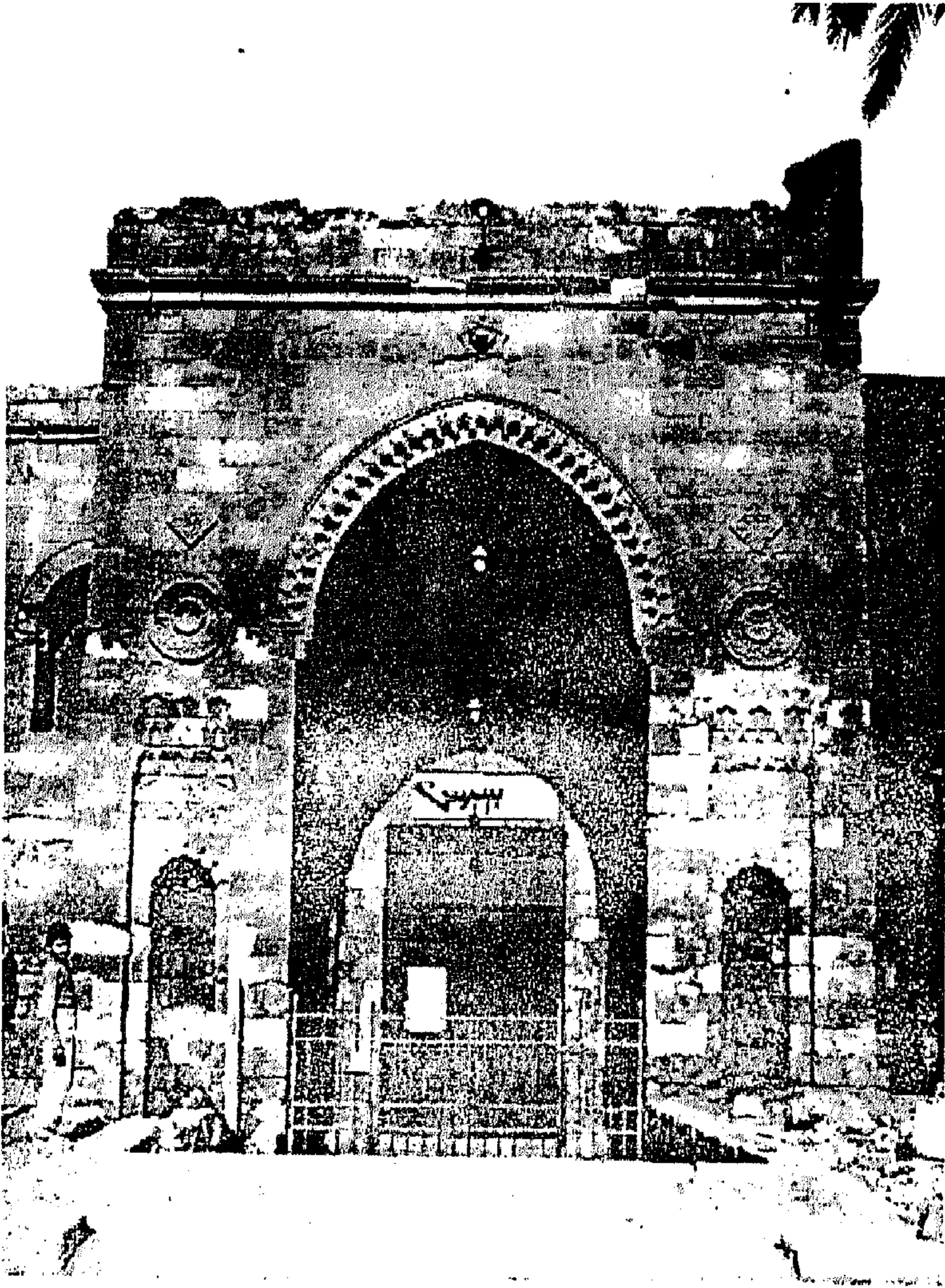
درهم القاهرة (عملات مسكوكة باسم بيبرس)



الرواق الجنوبي الغربي لمسجد بيبرس



مسجد الظاهر بيبرس بالقاهرة وقد نالته يد الإهمال



صورة أخرى لجامع بيبرس



بقايا المدرسة الظاهرية

إحياء الخلافة العباسية

أدرك بيبرس الأهمية البالغة لإحياء الخلافة العباسية بعد أن ضاعت وقضى عليها المغول وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم في ١٠ فبراير ١٢٥٨م ، وراح أعداء الأمة الإسلامية من المغول والصليبيين ينتهكون الحرمات ، ويعيثون في الأرض فسادا . فلا بد لهذه الأمة الإسلامية من أن تعود القدوة والمثل الأعلى . ولا بد للإسلام المشرق الوضاء من أن يعاود سيرته الأولى منارة للناس كافة ، ولا بد للمسلمين من يكون لهم خليفة الذي يتمثل فيه المرجع والعون ، خطوة على الطريق الصحيح لكل بلد من بلاد الإسلام ، ، خاصة البلدان الإسلامية الآسيوية التي ما زالت ترزح تحت نير المغول كرمز لها يعيد إليها الأمل .

وتمكن بيبرس من استقدام أحد الناجين من أسرة العباسيين هو "أبو العباس أحمد"، وعقد في القلعة مجلسًا عامًا في ٢٢ من نوفمبر ١٢٦٢م حضره قاضي القضاة وكبار رجال الدولة ، وقرئ نسب الخليفة على الحاضرين بعدما ثبت عند القاضي ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبإيعة بيبرس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله . ولما تمت البيعة أقبل الخليفة على بيبرس وقلده أمور البلاد ، وبذلك أصبح بيبرس سلطانا شرعيا معترفا به لإدارة شئون البلاد . واحتفظ الخليفة العباسي بالواجهة الدينية الشرعية للسلطان المملوكي وتقرر الدعاء له وذكر اسمه على المنابر في صلاة الجمعة .

على أن هناك بعض المؤرخين الغربيين الذين تناولوا هذه الخطوة العظيمة التي خطاها الظاهر بيبرس وحولوها إلى غير غايتها ، وعالجوها معالجة تحريف وتشويه . ونضرب لذلك مثلا بما قاله المستشرق (بيترتوراو) في دراسته الأكاديمية حول شخصية بيبرس التي نال بها درجة الدكتوراة من جامعة (إيبرهارد- كارلزبتنغن) في ألمانيا عام ١٩٨٥م ، والمذكورة في كتاب : (الظاهر بيبرس ، اسهام في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر) لمؤلفه : بيتر توراو - (ترجمة محمد جديد) :

"ولعل من المسائل اللافتة فى كتاب المستشرق توراو مسألتين اثنتين : أولهما : إحياء بيبرس الخلافة العباسية فى القاهرة . عالج الباحث هذه المسألة بعناية ودقة فى القسم (٢ - ٢) من كتابه تحت عنوان : خلافة الظل فى القاهرة ، وكشف أن بيبرس كان يدرك مدى أهمية إحياء الخلافة فى القاهرة لتسوية مشروعية سلطته . فنجاح السلطان فى تحقيق هذا الهدف سيشكل سندا قويا يساعده على تثبيت دعائم حكمه المتقلل ، فى مصر والشام ، وستصبح القاهرة حاضرة السلطنة حينذاك مقر السلطين الدينية (الخلافة) والدنيوية (السلطنة) فتفيد دولته من ذلك فائدتين كبيرتين هما :

✱ أن سلاطين المماليك من بيبرس فصاعدا سيظهرون أمام العالم الإسلامى حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وهذا ما يجعل بيبرس فاتقا أنداده فى سائر أنحاء العالم الإسلامى المعروف آنذاك ، وستنظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامى الإسلام والمسلمين .

✱ أن سلطة المماليك ستحظى بشرعية ما كانت لتكسبها من مصدر آخر، حين يقر الخليفة بيبرس سلطانا ، ويطلق يده فى شؤون البلاد والعباد ، بتفويضه لصلاحيات الدنيوية المنوطة أساسا بالخليفة ، وهذا ما سيعزز هبة الظاهر بيبرس ، ويجعله حاكما شرعيا يستمد سلطانه ونفوذه من السلطة الدينية العليا فى حكم المسلمين ، متمثلة بشخص الخليفة . ولا يعود ، حسب ما يروجه عنه أعداؤه ، بأنه مغتصب السلطة من أصحابها الشرعيين ، أو حتى من سلفه المظفر قطز ، وإنما يصبح بيبرس فى صورة السلطان الذى اختاره الخليفة لحكم البلاد ، وقلده مقاليد الأمور، ليس فى الديار المصرية والشامية

فحسب ، بل فى جميع البلاد الإسلامية وما سيفتحه من أيدى الكفرة ،
وتتقهقر من ثم آمال الأيوبيين باستعادة سلطتهم الضائعة فى تلك البلاد
بسقوط فكرة لامشروعية حكم بيبرس وأسلافه من سلاطين المماليك ،
وهو ما حصل واقعا وفعلا ..."

وتظهر وجهة نظر المستشرق المذكور أعلاه فى أن أهداف بيبرس من إحياء الخلافة
العباسية كانت شخصية بحتة وهى "تسويغ مشروعية سلطته" ، وستكون الخلافة "...سندا
قويا يساعده على تثبيت دعائم حكمه المتقلقل ، فى مصر والشام..." . ولا نتفق مع هذا
المستشرق فى أن بيبرس كان يهدف إلى "تسويغ مشروعية سلطته" بعدما أقرها قاضى
القضاة وكبار رجال الدولة وعلم بها الناس داخل مصر وخارجها . كما نستنكر ما تخيله
المستشرق من أن حكم بيبرس كان "متقلقلا فى مصر والشام" ؛ فليس هناك ما يؤيد تلك
"القلقة" أو حتى يدل عليها ، بالنظر إلى تاريخ بيبرس الحافل بالانتصارات العسكرية سواء
قبل توليه السلطنة أو بعدها ، وبالنظر إلى الإصلاحات الداخلية فى كل من مصر والشام
والتي كانت تجرى على قدم وساق كما مر بنا .

وعن الفائدتين المذكورتين فيما استشهدنا به على لسان المستشرق ، وأولهما أن :

" سلاطين المماليك من بيبرس فصاعدا سيظهرون أمام العالم
الإسلامى حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وهذا ما يجعل بيبرس
فائقا أنداده فى سائر أنحاء العالم الإسلامى المعروف آنذاك ، وستنظر
إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامى الإسلام والمسلمين ."

نقول إن الخلافة أصلا ليست فى حاجة إلى من يحميها ويحمى أشخاص خلفائها ؛
والعكس هو الصحيح ، فعلى الخليفة توفير الحماية للرعية بما يراه . هذا ما يفهمه المسلمون
وتتقضى به شريعة الإسلام . ومن ناحية أخرى ، لم يكن بيبرس ، بعد الإنتصار الباهر فى
عين جالوت ومن قبله فى المنصورة ، إلى أن "يظهر فائقا أنداده فى سائر أنحاء العالم
....." هذا إن كان لبيبرس أنداد فى زمانه فى أي مكان من العالم الإسلامى المعروف
آنذاك ، فضلا عن أنه أثبت فى واقع الأمر أنه - ومعه المماليك - حامى الإسلام والمسلمين
كما قدمنا .

وغنى عن البيان ضعف الفائدة الثانية ، ألا وهى الشرعية ، بعد تأييد قاضى القضاة
وأهل الحل والعقد وعامة المسلمين فى مصر والشام .

ومن الأمور المحيرة أن يذكر المستشرق وجود خليفة عباسى آخر غير الذي أعاده
بيبرس فى القاهرة ، ثم يتنبه بيبرس إلى خطورة إحياء الخلافة العباسية ، ويتصرف
بسرعة بحيث يترك الخليفة الآخر يلقي حتفه فى الصحراء :

" ... والمح الباحث إلى أن الظاهر بيبرس قد تنبّه على خطورة
استقدامه الأمير أحمد ، أحد العباسيين الناجين من مذبحة المغول فى
بغداد إلى القاهرة ، ومبايعته بالخلافة باسم المستنصر بالله (عام
٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م) إذ شعر أن ليس من مصلحته أن تقوم إلى جانبه
سلطة يعدها المسلمون كافة بمنزلة السلطة الوحيدة فى العالم
الإسلامى ، وشرع يعد العدة لإبعاد الخليفة عن القاهرة ، بعد أن
أقامه فيها بضع شهور ، فزين له أنه سيعمد إلى تلبية أمنيته بإعادته
إلى بغداد ، ورتب له بعض الأمراء والعساكر ، ثم خرج برفقته إلى
دمشق . ويرجح توراو أن ثمة من نصح السلطان حين وصوله إلى
دمشق بالعدول عن أداء هذا المشروع ، لأن إعادة الخلافة إلى

بغداد ، فى حال إخراج المغول من العراق ، سيشكل خطرا أكيدا
على سلطنة المماليك ، وهذا ما أثار الشكوك فى نفس السلطان ،
ودفعه إلى ترك الخليفة يخرق الصحراء برفقة قوة صغيرة من
الأعراب والترك ، كي يلاقى وصحبه مصيرهم المحتوم على يد
المغول ."

ويسوّغ المؤلف إعادة بيبرس الخلافة العباسية الثانية إلى القاهرة بمبايعة عباسى آخر
باسم : الحاكم بالله ، بعض مضى عام على مقتل المستنصر ، باطمئنان السلطان إلى
استقرار حكمه فى مصر والشام واستغنائه عن ظهور خليفة مغلوب على أمره إلى جانبه
فى المناسبات العامة ، وبعد حاجته إلى إسماع كلمته للرعية ، وأضحت مهمة الخليفة
محصورة بتأمين الغطاء الدينى للسلطان عند الحاجة . ومنذ ذلك الحين تخلى الخليفة
العباسى القابع فى القاهرة، وإلى الأبد ، عن تحقيق حلمه الكبير بإعادة الخلافة إلى بغداد ...

ولا ينطلى ما رواه المستشرق إلا على كل ساذج ، فإن " ترك الخليفة يخرق الصحراء
برفقة قوة صغيرة من الأعراب والترك " بعيد عن التخيل ، فلا تستطيع قوة صغيرة أن
ترافق الخليفة العباسى إلى العراق ، وتعيده خليفة للمسلمين ، حيث المغول قابعين
فى أرجاء البلاد هناك . كما أن تصوير بيبرس بالرجل الذي يتأرجح ويغير أفكاره بعد
" استقرار حكمه فى مصر والشام واستغنائه عن ظهور خليفة مغلوب على أمره إلى جانبه
فى المناسبات العامة ، وبعد حاجته إلى إسماع كلمته للرعية ... " ، أمر واضح التناقض
مع كامل سيرة الظاهر بيبرس نفسه ، بل ومع ما تخيله المستشرق من احتياج بيبرس إلى
غطاء شرعى لحكمه



حملات ببيرس العسكرية

- الإستعدادات العسكرية
- الإستيلاء على دمشق
- الإستيلاء على قيسارية
- الإستيلاء على حيفا وأرصوف
- الإستيلاء على صفد
- ببيرس وعكا
- ببيرس وقبرص
- ببيرس وملك صقلية
- ببيرس وأمير طرابلس
- في معسكر الصليبيين
- فيليب أمير مونتفورت
- الإستيلاء على قلعة الكرك

الإستعدادات العسكرية

تعززت سلطنة الظاهر بيبرس وصبغها الخليفة العباسي الجديد بصبغة الشرعية كما مر بنا . ولم تقف طموحاته عند ذلك ، وإنما كان دائما ما يتذكر أمجاد صلاح الدين الأيوبي وأياديه وما أنجزه سابقوه من توحيد العالم العربي الإسلامي . لقد نجح صلاح الدين في إقامة إمبراطورية حكمها وتوارثتها أسرته من بعده ، فعليه أن يسير على الدرب ويحذو حذوه وتسترجع الدولة الإسلامية مجدها . فبدأ بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا فأصبحتا دولة واحدة وتوحدت القيادة العسكرية في مواجهة الصليبيين .

وشمر عن ساعده وأفلح في ترتيب البيت المصري ، ليعاود نشاطه للتصدي لأعداء الأمة الإسلامية: الصليبيين والمغول . وراح يصلح النقاط العسكرية ويقويها ويرمم ما بلى منها ، وقام ببناء ترسانات جديدة ، لكل من السفن الحربية وسفن النقل البحري للبضائع .

ولم يغب عن ذهن بيبرس أن الزراعة عماد الاقتصاد في مصر ، فأنشأ مقاييس شتى للنيل ، وأقام الجسور، وحفر الترع . كما أدرك أن أعداء الوطن يتربصون بمصر الدوائر ، فاهتم بالصناعة وبخاصة ما يحتاج إليه الجيش من آلات الحصار والأسلحة والآلات الحربية .

وكما أنشأ بيبرس الترسانات والسفن البحرية وسفن البضائع ، كان إداريا مقتدرا ، فبنى شتى مشاريع البنية الأساسية ، كالجسور وقنوات الري وقنوات الملاحة . كما عزز من الموانئ وبنى المساجد . وأعاد بناء كل القلاع والحصون السورية التي دمرها المغول .

١٢٦١م الاستيلاء على دمشق

هذا ما جادت به عبقرية بيبرس . وتحقق ما كان يتوقعة ، إذ لم يكد يمر عام واحد على توليه السلطنة حتى عاود المغول الهجوم على حلب ، مما هدد سيطرة بيبرس على سوريا ؛ بيد أن أميرى حماه وحمص الأيوبيين هزما المغول ، بينما زحف بيبرس على دمشق وهزم

سنقر خارج المدينة يوم ١٧ يناير ١٢٦١ م ، وحارب مواطنو دمشق تأييدا لسنقر ، لكن بيبرس سحق مقاومتهم ، ثم مضى ليتعامل مع الأيوبيين ؛ فأغرى أمير الأكراد بوعود براقه كي يعترف بسيادته العليا ، ثم أزاله بهدوء ، وسمح للأشرف صاحب حمص بالإحتفاظ بمدينته حتى وافقه المنية بعد ذلك بعامين أي في سنة ١٢٦٣م . وفي أوائل العام التالي ١٢٦٤م اتفق النظامان الدينيان العسكريان ، نظام فرسان المعبد ونظام فرسان المستشفى على توحيد قواتهما المقاتلة والإستيلاء على حصن ليزون ، أو ماجدو في مدينة ماجدون القديمة . وبعد أشهر قليلة قاما بغارة مشتركة وتقدما حتى عسقلان ، وفي خريف ذلك العام توغل الجنود الفرنسيون ، وهم الذين يتحمل القديس لويس التاسع ملك فرنسا نفقاتهم ، حتى ضواحي بيسان .

وعلى مدى ست سنوات متتالية ، من ١٢٦٥م إلى سنة ١٢٧١م ، كان بيبرس ينطلق في حملات تكاد أن تكون سنوية . فمن قيسارية إلى حيفا ، ومنها إلى عثليت ، ثم أرصوف .

على أن أهم مدينة استولى عليها بيبرس كانت أنطاكية (في مايو ١٢٦٨م) وباستيلائه على مواقع أخرى حصينة سنة ١٢٧١م كان قد دمج مصير الصليبيين واستحال عليهم استرداد الأراضي التي سبق أن فقدوها . وبذا فإن حملات بيبرس جعلت إمكان إحراز النصر النهائي على يد خلفائه ممكناً . لقد كان الهدف الدائم الذي يشغل بيبرس هو احتواء الهجمات المغولية على سوريا من الشمال ومن الشرق ، وهي الهجمات التي كانت تهدد قلب الشرق الإسلامي .

١٢٦٥م الإستيلاء على قيسارية

وفي أوائل العام الجديد ١٢٦٥ م انطلق بيبرس من مصر على رأس جيش رهيب للتصدي للمغول الذين بدأوا يعتدون على شمال سوريا . ولما علم أن جنوده في الشمال أوقفوا المغول ، قرر استخدام جيشه في مهاجمة الصليبيين في الجنوب . وظهر فجأة أمام

قيسارية ، وسقطت المدينة على الفور في ٢٧ فبراير ، واستسلمت الحامية بعد أسبوع في الخامس من مارس ، وسمح لها بالرحيل ، أما المدينة والقلعة فقد دمرهما بيبرس وسواهما بالأرض .



بقايا كنيسة الصليبيين في قيسارية

١٢٦٥م الإستيلاء على حيفا وأرصوف

وبعد أيام قلائل ظهر جيش بيبرس عند حيفا . وكان أهلها قد شعروا بالخطر مسبقا ، فهربوا فى قوارب تاركين المدينة والقلعة ، فدمرهما الجنود تدميرا كاملا . وأما من أثر البقاء فكان مصيره القتل . وفى تلك الأثناء هاجم بيبرس قلعة فرسان المعبد العظيمة فى عثليت ، وأحرق القرية الواقعة خارج الأسوار ، لكن القلعة نفسها نجحت فى مقاومته . وفى ٢١ مارس رفع عنها الحصار وانطلق إلى مدينة أرسوف التى كان فرسان المستشفى قد حصنوها بحامية قوية وخبزوا فيها المؤن بوفرة . وكان بداخل القلعة ٢٧٠ فارسا حاربوا بشجاعة كبيرة ، غير أن جنوب المدينة سقط يوم ٢٦ إبريل بفعل آلات الحصار التى دمرت أسوارها ، وبعد ثلاثة أيام استسلم قائد القلعة بعد أن فقد ثلث فرسانه ، وبعد الوعد بمرور آمن لمن بقى على قيد الحياة . وتراجع بيبرس عن وعده وأخذهم جميعا فى الأسر .

وأصيب الصليبيون بالرعب لضيق تلك القلاع العظيمة ، حيفا وأرسوف ، ومن قبلهما قيصرية . وبدأ البعض يفكر فى الهرب قبل فوات الأوان ، سواء منهم الأمراء أو الأفراد العاديين ، فبدأوا يعدون العدة للرحيل . وألهمت هذه الخسارة المنشد المتجول (تروبادور) ريكوت بونوميل R. Bonomet فأنشد قصيدة مريرة يشكو فيها من أن المسيح يبدو الآن مسرورا لما لحق بالمسيحيين من مذلة *Poesie Provenziale* .



رسالة بيبرس إلى القاضي ابن خلكان

بفتح قيسارية وأرصوف

من إنشاء فتح الدين عبد الله بن القيسراني

جدد الله البشائر الواردة على المجلس السامي القضائي وأسرّه بما
أسمعه وأبطل ببركته كيد العدو ودفعه ، وجاء بها سبب الخير
وجمعه ، ولا زالت التهاني إليه واردة والمسرات عليه وافدة ونعم
الله وبركاته لديه متزايدة . هذه المكاتبة تبشر بنصر من الله وفتح
قريب ، وهناء يأخذ له المجلس منه أوفر نصيب ، ونوضح لعلمه
الكريم أنه لما كان يوم الإثنين التاسع من رجب المبارك قدمنا خيرة
الله تعالى وزحفنا على مدينة أرسوف بعساكرنا المنصورة ، وأدرنا
بها الأطلاب للزحف ، وكانت مرتبة على أحسن صورة وتناولناها
مناولة القام إذا ضم ضمة المشتاق ، واستولينا على جميع أهلها
فأضحى كل منهم من القيد في وثاق ، وأضرمنا بها النيران ، فعجل
الله لهم بها في الدنيا قبل الآخرة الإحراق ، وجرعناهم غصص
الموت فتجرعوها مرة المذاق . وكانت مدة القتال ثلاثة أيام آخرها
يوم الخميس ثاني عشر شهر رجب المبارك فلم يفلت منهم أحد ،
وعاجلناهم في هذه المدة القريبة فلم يغنهم ما فعلوه في تحصين
البلد ، واحتطنا بهم فما نجا منهم بحمد الله صغير ولا كبير .
وعجلنا للمجلس بهذه البشارة ليأخذ منها حظاً وافراً ويقرا آيات
نصر الله على أصحابه من الفقهاء والعدول . ويحدث بها فيكون تالياً
لها بين الأنام وذاكراً ، ويكتب مضمون ذلك إلى نوابه من الحكام

ليشهر هذا الخبر السعيد بين الأنام ، ويواصلنا بدعائه فإننا نرجو به
الزيادة . والله تعالى يجزيها ويجزيه من أطاقه على أجمل عادة ،
بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى . كتب ثانی عشر شهر رجب المبارك
وبين الأسطر، وعدة الأسرى ألف أسير ، وأما القتل فكثير لأن القلعة
أخذت بالسيف .

(ذیل مرآة الزمان للیونینی ج ٢ / ٣١٩ - ٣٢٠)

١٢٦٦م الإستيلاء على صفد

وفي صيف عام ١٢٦٦م انطلق من مصر جيشان ، الأول يقوده بيبرس نفسه وسار به
إلى عكا . لكنه تحول عنها وظهر فجأة أمام صفد التي يسيطر عليها فرسان المعبد في
قلعتها الضخمة المطلة على باقى الجليل المرتفع . وكانت تحصيناتها قوية ، وحاميتها وفيرة
العدد ، أغلب أفرادها من المسيحيين الوطنيين أو أنصاف الوطنيين . وتمكنت الحامية من
صد أول هجوم للسلطان يوم ٧ يولية ، كما لم ينجح أي من هجومية التاليين في ١٣ و ١٩
من نفس الشهر . فأرسل المنادين يعلنون منح العفو التام لكل من يستسلم من الجنود
الوطنيين ، وفي الحال تحركت الريبة والشك لدى فرسان المعبد ، وتبادلوا الإتهامات
وتطور الخلاف بينهم وأصبح قتالا ، وبدأ السوريون في الفرار مستجيبين لندائه واثقين في
كلمته . وسرعان ما اكتشف فرسان المعبد استحالة صمود القلعة ، وفي أواخر الشهر
أرسلوا أحد أتباعهم السوريين ، وهو ليو السوري ، يعرضون على بيبرس الإستسلام ،
وعاد ليو بوعد بانسحاب الحامية إلى عكا في أمان . وبعد أن سلم فرسان المعبد القلعة
لبيبرس قطع رؤوسهم جميعا ، ويبدو أن الأمر كان يشتمل على مؤامرة ، فقد تحول ليو

السورى إلى الإسلام على الفور . وباستيلاء بيبرس على صفد أمكنه السيطرة على الجليل كله .

رسالة بيبرس إلى القاضى بن خلكان بمناسبة أخذ صفد

من إنشاء كمال الدين أحمد بن العجمى

سر الله خاطر المجلس السامى وأطلع عليه وجوه البشائر سوافر ،
وأمتع نواظره باستجلاء محاسنها النواضر ، وواصلها إليه متوالية
تواجهه كل يوم بمراتبها الزواهى الزواهر ، وأماثلها لديه متضاهية
الجمال متناسبة فى حسن المبادئ والأواخر ، ولم تزل وجوه البشائر
أحسن وجوه تستجلى ، وألفاظه أعذب ألفاظ تستعاد وتستحلى . وإذا
كررت على المسامع أحاديث كتبها لا تمل بل تستمنى ، لا سيما إذا
كانت بإعزاز الدين وتأييد المسلمين ، ونبا فتح نرجو أن يكون طليعة
فتوحات كل فتح منها هو الفتح المبين ، فإن أنباءها تجل وقعا وتعظم
فى الدنيا والآخرة نفعا ، وتود كل جارحة عند حديثه أن تكون سمعا
لحديث هذا الفتح الذى كرم خبرا وحسن أثره فى الإسلام وردا
وصدرا ، وطابت أخبار ذكره فشغل به السارون حيداء والسامرون
سمرا . وهو فتح صفد واستنقاذه من أسره واسترجاعه إلى الإسلام ،
وقد طالت عليه فى النصرانية مدة من عمره ، وإقرار عين الدين
بفتحه ، وكان قذى فى عينه وشجى فى صدره . وقد كنا لما وصلنا
الشام بالعزم الذى نفرته دواعى الجهاد ، وأنقذته عوالى الصفاد وقربته
أيدي الجياد ملنا على سواحل العدو المخذول ، فغرقناه ببهار عساكرنا
الزاخرة ، وشنينا بها من الغارات ما ألبسها ذلا رفل بها الإسلام فى

ملايس عزه الفاخرة . وهى وإن كانت غارة عظيمة شنت فى يوم واحد على جميع سواحله واستولى بها النهب والتخريب على أمواله ومنازله ، واستبيح من حرمة وحرمة مصونات معاقله وعقائله ، إلا أنها كانت بين يدي عزائنا المنصورة نشيطة نشطنا بها الغازين واسترهننا بها هم المجاهدين ، وقدمناها لهم كاللهنة قبل الطعام للساغبين ، واعقبنا ذلك بما رأيناه أولى بالتقديم وأحرى ، وتبيناه أشد وطأة على الإسلام وأعظم ضرا ، وهى صدف التى باء بإثمها حاملها على النصرانية ومسلطها بالنكاية على البلاد الإسلامية ، حتى جعلها للشرك مأسدة أساده ومراد مراده وبحر رماحه ومجرى جياده ، كم استبيح بسببها للإسلام من حمى ، وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلما ، وكم تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فحازوا مغنما وقوضوا معلما ، فنازلناها منازل الليل بانعقاد القساطل ، وطالعتها مطالعة الشمس ببريق المرهفات وأسنة الذوابل ، وقصدناها بجحفل لم يزحم بلدا إلا هدمه ولا قصد جيشا إلا هزمه ، ولا ألم ممتنعا طغى جباره إلا سهله وقصمه ، فلما طالعتها أوائل طلائعنا منازل ، وقابلتها وجوه كماننا المقاتلة اغتر كافرنا فبرز للمبارزة والقتال ، ووقف دون المنازل داعيا للنزال . فتقدم إليه من فرساننا كل حديد الشبا جديد الشباب يهوى إلى الحرب فيرى منه ومن طرفه أسد فوق عقاب ، ويخف نحوها متسرعا فيقال: إذا لقاء أعداء أم لقاء أحياب ؟! فهم فوارس كمناسلهم رونقا وضياء ، تجرى بهم جياذ كذوابلهم علانا ومضاء ، إذا مشوا إلى الحرب مزجوا المرح بالتيه فيعطاهم كسل ، وهزوا قاماتهم مع الذوابل فجعلت

الحرب من منهم الأسل . فحين شاهد أعداء الله آساد الله تصول من
رماحها بأساودها ، وتبدى ظمأ لا ينقعه إلا أن تردّ من دماء الأعداء
محمرمواردها ، وأنها قد أقبلت نحوهم بجحافل تضيق رحب الفضاء،
وتحقق بنزولها ونزالها كيف نزول القضاء ، وأنه جيش بعثه الله
بإعزاز الجمعة وإذلال الأحد ، وعقد برايته مذ عقدها أن لا قبل بها
لأحد ، وأن الفرار ملازم أعدائه ولا قرار على زار من الأسد ، ولوا
مدبرين وأدبروا على أعقابهم ناكسين ، ولجأوا إلى معقلهم معتقلين لا
متعقلين . فعند ذلك زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطاق
بخصره ، ودرنا به حتى عدنا كاللثام بثغره ، وأمطرنا عليه من السهام
وبلا سحبت ذيول سحبه المتراكبة ، وأجرينا حولها من الحديد بحرا
غرقه أمواجه المتلاطمة وضايقناها حتى لو قصد وفد النسيم وصولا
إليه لما تخلص ، أو رام ظل الشمس أن يعود عليه فينا لعجز لأخذنا
عليه أن يتخلص . ثم وكلنا به من المجانيق كل عالي الغوارب عاري
المناكب ، عبل الشوى سامى الذري ، له وثبات تحمل إلى الحصون
البوائب ، وثبات تزول دونه ولا يزول الشواحق ، ترفع لمرورها
الستائر فتدخل أحجاره بغير استئذان ، وتوضح لنزوله رؤوس
الحصون فتخر خاضعة للأذقان فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى
هدمها ، وتقبل ثنيات ثغره حتى ابدى ثرمها . وفي ضمن ذلك لصق
الحجارون بجداره وتعلقوا بأذيال أسواره ففتحوها أسرابا ، وأججوها
جحيما يستمر جمرها التهابا ، فصلى أهل النار بنارين من الحريق
والقتال ، ومنوا بعذابين من حر الضرام وحد النصال ، هذه تستعر
عليهم وقودا ، وهذه تجعل هامهم للسيف غمودا .

فعند ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم ، وأصبح ثغرهم الذى ظنوه عاصما لا يغنى عنهم ، ومع ذلك فقاتلوا قتال مستقتل لا يرى من الموت بدا ، وثبتوا متحابين يقدون ببيضهم البيض والأبدان قدا ، فصبر أولياء الله على ما عاهدوا الله عليه ، وقدموا نفوسهم قبل إقدامهم رغبة إليه ، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف فلم يروا دونها مقيلا وتحققوا ما أعدده الله لأهل الشهادة فاستحلوا وجه الموت على جهامته جميلا . فعند ذلك خاب ظن أعداء الله وسقط فى أيديهم وصار رجاء السلامة برؤوسهم أقسى تمنيتهم ، فعدلوا عن القتال إلى السؤال ، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال ، وتداعوا بالأمان صارخين وجأؤوا بدعاء التضرع لاجين ، فأغمد الصفح عنهم بيض الصفاح ، وقاتلوا من التوسل بأحد سلاح ، واستدعوا راياتنا المنصورة فشرفوا بها الشرفات ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات . وتسلم الحصن المبارك وقت صلاة الجمعة ثامن عشر شوال ، وتحكم نوابنا على ما بها من الذخائر والأموال ، ونودي فى أرجائها بالواحد الأحد ، واستبدل للجمعة يوم الجمعة من يوم الأحد . ونحن نحمد الله على هذا الفتح الذى أعاد وجه الإسلام جميلا ، وأنام عين الدين فى ظل من الأمن مدة ظليلا . وألان من جانب هذا الثغر مالا ظن أن سيلين ، وقل من صعبه ما شرح به صدر الملك والدين ، فإنه حصن مرعاه دهر لم يمر فتحه بالأوهام ، ولا تطاولت إليه يد الخطب ولاهمة الأيام ، وربما كان يجد منفسا فيدعو الملوك إلى نفسها فيصامموا ، وتخطيهم وممرها أدنى حرب فيرغبوا فى العزلة والمسالمة فيسالموا ، ألهاهم عن فخر فتحها الرغبة فى رفاهية عيشة

ظنوها راضية ، ووقف بهم دون السعى فيه همة لنزول الدنايا
متغاضية ، وجنح بهم مراد السلم وإرادة السلم كانت عليهم القاضية
والمجلس – أيده الله – يأخذ حظه من هذه البشرية ويقر بها عينا
ويشرح بها صدرا ويملى وجوه بشائرها من هذه المكاتبه على عيون
الناس من كل حاضر وبادٍ ، ويستتطق بها السن المحدثين وفي كل
محفل ونادٍ . والله يحرس المجلس ويسهل بهمة كل مراد إن شاء الله
تعالى في التاريخ المذكور وقت الفتح .

(ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣٣٨-٣٤٣)

وكانت الخطوة التالية بعد الإستيلاء على صفد مهاجمة طورون التي سقطت له بلا قتال
تقريبا . ومن طورون أرسل الجنود لتدمير القرية المسيحية (قرة) الواقعة بين حمص
ودمشق لإرتيابه في اتصالها بالفرنج ، فقتلت البالغين وأخذت الأطفال عبيدا .

١٢٦٧م ببيرس وعكا

ثم جاء دور عكا ، وكان الوصى عليها ، هيو أمير أنطاكية ، قد سارع وعبر البحر بما
استطاع جمعه من الرجال ، وكانت هناك هدنة بين ببيرس وفرنج الساحل ، إلا أنهم
نقضوها ولم يحترموا شروطها ، فزحف ببيرس متجها إليهم ، ولما اقترب من عكا أصابهم
الرعب وراسلوه متوسلين باستمرار الهدنة ، وادعوا أنهم لم يعلموا بقدومه ، فأرسل إليهم
كتابا يقول فيه :

رسالة ببيرس إلى فرنج عكا

من يريد أن يتولى أمرا ينبغي أن يكون فيه يقظة ، ومن خفى عليه
خروج هذه العساكر وجهل ما علمته الوحوش في القلاة والحيتان في
المياه من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه

التراب الذى أثارتة خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنايكها قد أصم
أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن فى موقان (اقليم فى أذربيجان)
من التتر. فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب مدينتكم ولا
تدرون ، فأي شئ تعلمون ؟ وماذا تحيطون به علما ؟ ولم لا أعطيتم
لوالى غزة الكتاب الذى كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر ؟

(كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ق ٢-٤٨٣)

رسالة أخرى من الملك الظاهر بيبرس إلى مقدم الإستبارية فى عكا

حصلت عدة مراسلات بين الملك الظاهر بيبرس ومقدم الإستبارية (يعنى السيد الأعظم
لفرسان المستشفى) حول نقضهم الهدنة المعقودة بين الطرفين ، وخالف الإستبارية شروط
الهدنة فحصنوا عكا ، وأرسل السلطان إلى مقدمهم (يعنى سيدهم الأعظم) عدة رسائل
مستفسرا وأرسلوا له عدة أجوبة لم يطمئن إليها ، وأخيرا أرسل إلى مقدمهم يقول :

أما تجديد الریض لحفظ الصعاليك ، فالبلاد ما تحفظ بالأسوار ، ولا
تحفظ بالرعية ولا بالخنادق ، ولا تحفظ إلا بأحد أمرين : إما بالسيوف
والعزائم ، وإما بإحسان الجيرة وكف الأذى . ومن يخاف من
الصوص لم لا يخاف من غيرهم ؟ وأما أمر التتار فقد علم كل أحد
أنا عندما تحصنتم بالأسوار والخنادق خرجنا نحن إلى التتار . وما
جعلنا حصوننا إلا خيولنا ، ولا خنادقنا إلا سيوفنا ، ولا أسوارنا إلا
رجالنا ، وأما قولكم إن قلاعكم ما تخاف إلا الله ، ولا يجسر أحد أن
يصل إليها ، فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها إن شاء الله تعالى

ولا يفرع من أخبار التتار إلا مثلكم . وإلا هذه عساكرى أولها فى
الفرات وآخرها فى عذاب وها هى متواصلة.

(كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ، ق ٢-٩٦٥)

وفى مايو ١٢٦٧م ظهر بيبرس مرة أخرى أمام عكا رافعا الرايات التى استولى عليها
من فرسان المعبد والمستشفى ، وتمكن بذلك من الإقتراب حتى الأسوار مباشرة قبل
اكتشاف الخدعة ، لكن هجومه على الأسوار لم ينجح ، فرضى بنهب الريف تاركا الجثث
المنزوعة رؤوسها فى الحدائق المحيطة بعكا إلى أن جازف المواطنون بالخروج لدفنها .
وعندما أرسل الصليبيون سفراءهم طلبا للهدنة استقبلهم فى صفد حيث كانت القلعة كلها
محاطة بجماجم الأسرى المسيحيين القتلى .

بيبرس وقبرص

كانت قبرص أقرب بقعة للصليبيين وكانت تحكمها أسرة آل لوزجنان الصليبية ،
وكان الوصى على عرش قبرص هو الأمير هيو الأنطاكى . وقد أرسل هذا الوصى قوة
كبيرة من قبرص لمساعدة الصليبيين فى حربهم مع بيبرس قدرها المقريزى بحوالى ألف
وخمسمائة فارس .

وفى خضم حروب بيبرس واستيلائه على الحصون والمدن كما مر بنا ، هبت رياح
على السفن فكسرتها وأسر من فيها من الجنود ، مما أدخل الفرحة على ملك قبرص الذى
أرسل يخبر السلطان بيبرس بذلك ، ويعيره ، فأجابه السلطان بيبرس بما يلى:

رسالة السلطان الملك الظاهر بيبرس

إلى ملك قبرص

إلى حضرة الملك لوك : ذكر ببالي ، جعله الله ممن يوفى الحق أهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضاائه باليسير ، وأحسن إليه بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرفت أن الهوا كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك يتبجح وبه يفرح . ونحن الآن نبشره بفتح القرين (وهو من حصون الصليبيين المنيعة بالشام) ، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالإستيلاء على حديد وخشب ، الإستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح . واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح . إنما النصر بالسيف هو المليح . ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطايح ، ولا ينشئ لكم من احصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم في مائة عام قلعة . وما كل من أعطى مقذافا قذف وما كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو غرف . وإن عدت من بحرية المراكب أحاد فعندنا من بحرية المراكب آلاف . وأين الذين يطعنون بالمقاذيف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصفوف ، وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول ، وفرق بين من يجريها كالبحار ومن تقف به في الوصول . وفرق بين من يتصيد على الصقور من الخيل العراب ، وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب . ولئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة وإن استوليتم على سكان

فكم أخلينا بلادكم من سكان ، وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أيننا أغنم .
ولو أن فى الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم .

(كتاب السلوك للمقرئزى ج ١ ، ق ٢-٥٩٤ حاشية رقم ٣).

بيبرس وملك صقلية

رسالة شارل ملك صقلية الى بيبرس

كان شارل ، دوق أنجو أخو ملك فرنسا لويس التاسع ، ملكا على صقلية ، فأراد عقد معاهدة تجارية مع دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان الظاهر هدية مع رسالة من استاداره هذا نصها :

بأن مخدومه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا فى بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه .

(كتاب السلوك للمقرئزى ج ١ ، ق ٢-٥١٣)

بيبرس وصاحب طرابلس الفرنجى

أغار الملك الظاهر بيبرس على ضواحي طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول :

ما مراد السلطان فى هذه الأرض ؟ فرد عليه السلطان قائلا:
جئت لأرعى زروعكم ، وأخرب بلادكم ثم أعود إلى حصاركم فى العام الآتى .

(البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ٢٥٩)

١٢٧٠م فى معسكر الصليبيين

أثر بيبرس تمضية صيف عام ١٢٧٠م فى راحة وهدوء ، ليس من أجل المصعة واللهم ، وإنما للدفاع عن مصر ضد القديس لويس التاسع الذى كان قد وصل أمام تونس ، فضلا عن أن بيبرس كان على استعداد لمساعدة تونس ضد الفرنسيين . على أنه لم يدخر وقتا ، ولم يشأ أن يترك الصليبيين فى فلسطين على حالهم ، خاصة وقد علم أن هناك حملة صليبية أخرى جديدة فى الطريق . وربما يكون الملك الفرنسى لويس التاسع يخطط لإرسال بعض الجنود إلى الصليبيين فى الشام للمساعدة بعدما علم بالخسائر الفادحة التى منوا بها .

١٢٧٠م فيليب أمير مونتفورت

أرسل بيبرس إلى جماعة الحشاشين طالبا منهم اغتيال البارون الوحيد لدى الصليبيين ، فيليب أمير مونتفورت . وما يطلبه بيبرس من الحشاشين مجاب وعلى الرحب والسعة ، إذ أنه حررهم بغزواته من تلك الإتاوات التى كانوا يدفعونها لفرسان المستشفى ، هذا فضلا عن أنهم قد أصابتهم المهانة من الصليبيين الذين كانوا يتفاوضون مع المغول ، والمغول سبق أن دمروا المقر الرئيسى للحشاشين فى فارس .

وذهب أحد متطوعى الحشاشين إلى صور ، مدعيا أنه متحول إلى المسيحية ، وفى يوم الأحد ١٧ أغسطس ١٢٧٠م توغل إلى داخل الكنيسة التى كان يصلى فيها فيليب وابنه جون ، وانقض عليهما وطعن فيليب طعنة مميتة . وبذا أصيب الشرق الصليبي بضربة موجعة برغم نجاة ابن فيليب ، جون ، لكنه كان يفتقر إلى خبرة أبيه وهيئته .



الإستيلاء على قلعة الأكراد

(وتسمى أيضا قلعة الفرسان ، وقلعة الحصن وقلعة الكرك)



موقع قلعة الأكراد



مات القديس لويس هو الآخر أمام تونس ، فشعر بيبيرس بالإرتياح الكبير ، وفي ١٢٧١م توغل مرة أخرى في الأراضى الفرنجية ، وظهر في فبراير من ذلك العام أمام حصن صافيتا ، وهو الحصن الأبيض لفرسان المعبد ، ودافعت الحامية الصغيرة عن حصنها بحماس ، لكن السيد الأعظم لنظام فرسان المعبد نصحهم بالإستسلام ، فدخلها بيبيرس ، ثم واصل تقدمه الى قلعة الأكراد أو قلعة الحصن ، أو قلعة الكرك أو قلعة حصن الفرسان كما كانوا يطلقون عليها Krak des Chevaliers .

قلعة الأكراد ، نبذة تاريخية :

وصفها لورنس العرب (T.E. Lawrence (Lawrence of Arabia بأنها "أحسن قلعة قائمة حتى الآن في العالم ، تستحوز على كامل الإعجاب " . وهى أول قلعة إلى الشرق في سلسلة من خمس قلاع بُنيت للدفاع عن ممر حمص الجبلى الذى كان يشكل الطريق بين البحر المتوسط والمدن الداخلية . وتقع على تل يرتفع حوالى ٢٣٠٠ قدم مع سقوط عمودى من ثلاث جهات .

ولقد استعصت على الحصار والقصف واعتبرت أقوى وأعظم قلعة . ولم تكن معروفة فى ذلك الموقع عندما بنيت أول القلاع الخمس . ولكن المؤكد أن صاحب حلب أعطاها فى بداية القرن الحادى عشر للأكراد تحت وصاية أمير حمص ، وأطلق عليها وقتئذ "حصن الأكراد" . وفى عام ١١١٠م استولى عليها الصليبيون بقيادة تانكريد أمير أنطاكية ، أي بعد حوالى عشرة أعوام من وصول الصليبيين إلى القدس . وكان عدد أفراد حاميتها ٢٠٠٠ جندي ، وجرى بناء تحصينات زائدة بحسب الحاجة . وفى عام ١١٤٢م ، أعطيت لنظام فرسان المستشفى الدينى العسكرى الذى احتفظ بها حتى عام ١٢٧١م ، عندما استولى

عليها الظاهر بيبرس . وفى داخل التحصينات القوية بنيت مساكن للجنود واصطبلات للخيول ومخازن وطاحونة هوائية .

وكان للقلعة جناح واحد يحيط به سور . وقد أصبح هذا السور الجدار الداخلى لمركز القلعة الصليبية . ولم يكن هناك سوى فجوة صغيرة بين الجدار الخارجى والجدار الداخلى الذي يسيطر على القلعة بمجرى مائى يحيط به . وعلى الجدار الخارجى ثمانية أبراج مستديرة فى الجانبين الشمالى والغربى مع وجود فتحات لرمى المغيرين بالصخور . وكان الجدار الداخلى منحدرًا بزاوية ٨٠ درجة ويرتفع بمقدار ٨٠ قدما .

وكانت هناك كنيسة صغيرة شرقى المدخل ، حولها بيبرس إلى مسجد . وفى قبالتها كان هناك ثلاثة أبراج على الجدار الجنوبى ، مع بضع درجات لولبية فى واحد منها تؤدى إلى غرفة السيد الأعظم الفاخرة .

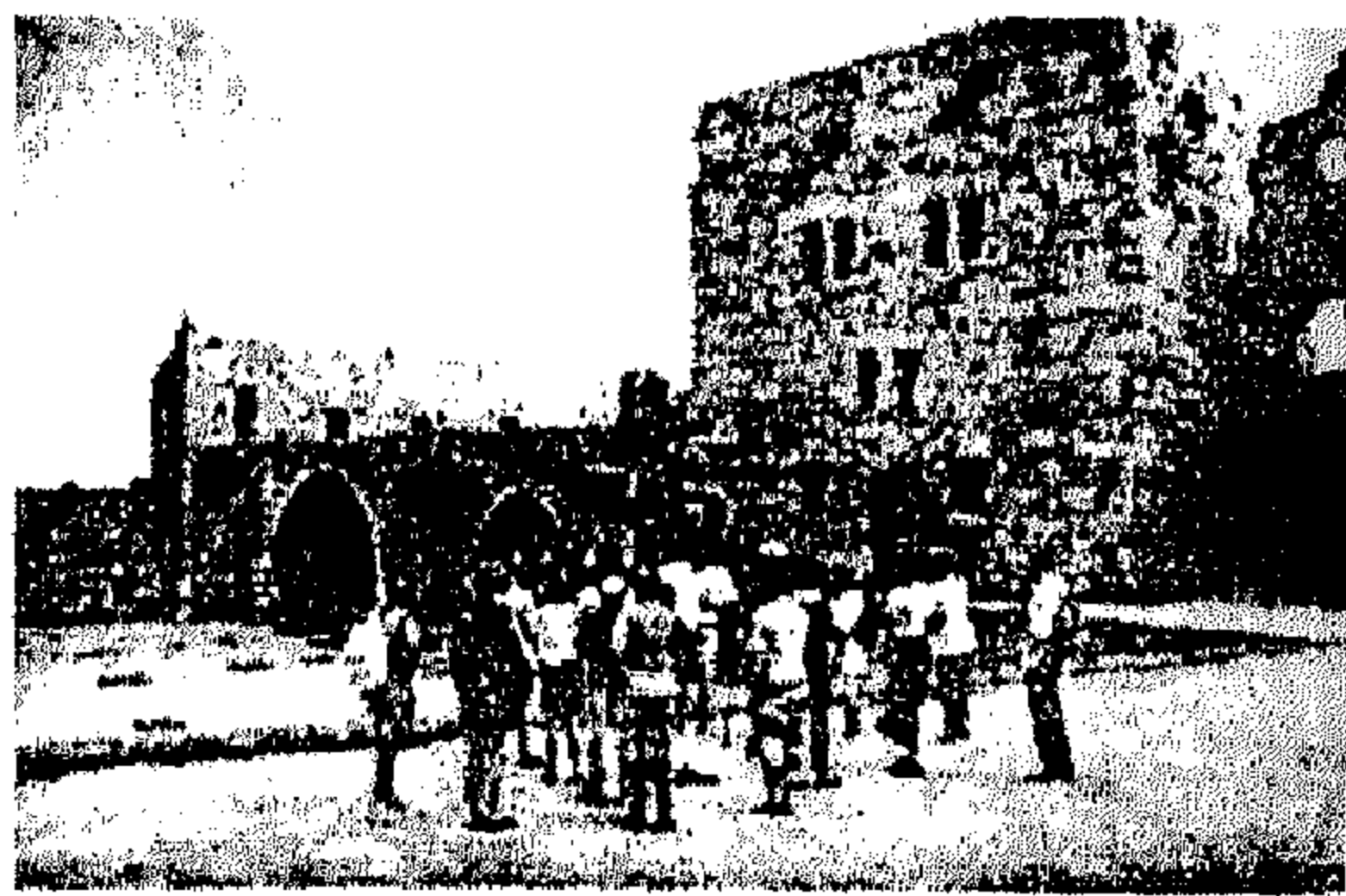
وكان أقوى الأبراج الثلاثة متصلا بالقلعة بجدار سميك عليه الكثير من المعدات الدفاعية . وكانت هناك أماكن تكفى لتخزين الطعام للحامية كلها مدة عام كامل وقناة مائية تجلب المياه من الكهوف الواقعة تحت القلعة أثناء الحصار .

وفى عام ١٩٣٤م أصبحت مزارا سياحيا .





قلعة الأكراد أو الحصن أو الفرسان



صور مختلفة لقلعة الأكراد من داخلها

وكان سلطان دمشق نورالدين قد هاجم القلعة فى عام ١١٦٣م ، وجرت رحى معركة فى وادى البقاع الواقع إلى الجنوب من القلعة .

وفى ١١٨٨م بدأ صلاح الدين الأيوبي فى محاصرتها ، غير أنه بعد أن شاهد دفاعاتها قرر التخلّى عن الحصار والإنطلاق شمالا معتقدا أنها منيعة . وأعيد بناؤها بصورة نهائية فى القرن الثالث عشر .

وفى ربيع عام ١٢٧١م حاصرها الظاهر بيبرس بجيش من مصر ، ودام الحصار مدة شهر بكامله ، وكان عدد الفرسان آنذاك مجرد ٣٠٠ فارس بدلا عددهم الذى كان يزيد أول الأمر على ٢٠٠٠ فارس .

وصل بيبرس إلى قلعة الكرك يوم ٣ مارس ١٢٧١م ، وفى اليوم التالى انضمت إليه فصائل من الحشاشين ، وكذلك جيش المنصور صاحب حماه يقوده المنصور نفسه . وقد هطلت أمطار غزيرة لعدة أيام عرقلت تثبيت آلات الحصار .

وفى ١٥ مارس أمطر السلطان أسوار القلعة بقصف مركز ، وسرعان ماحدثت شغرة فى الأسوار ساعدت المسلمين على شق مدخل إلى برج البوابة فى الحاجز الخارجى . وبقي الحال كذلك طوال أسبوعين ، تمكنت قوات بيبرس بعدها من شق طريق الى الحاجز الداخلى ، وراحوا يقتلون الفرسان الذين كانوا هناك ويأسرون من يجدونه من الجنود ، وصمد المدافعون لعشرة أيام آخر على البرج الكبير جنوب الحاجز ، واستسلموا فى ٨ إبريل ، وأرسلوا بسلام إلى طرابلس .

وهكذا كان الإستيلاء على حصن الكرك ، الذى لم يقدر صلاح الدين الأيوبي على إخضاعه ، نصرا كبيرا للسلطان بيبرس ، الذى يستطيع الآن السيطرة على كل المداخل المؤدية إلى طرابلس . ولقد واصل زحفه متجها الى طرابلس واستولى على حصن عكار

وهو حصن فرسان المستشفى جنوب البقاع ، وقد استمر حصاره مدة أسبوعين سقط بعدها في يد بيبرس في أول مايو .

وأعاد بيبرس بناء ما تهدم من القلعة ، وبنى أبراجا جديدة ، وكذلك معقلا في الجانب الجنوبي الضعيف، بما يعنى أنها احتفظت بأهميتها كقلعة عربية .



المغول وحلفاؤهم

- هولاكو فى الطريق ١٢٥٦م
- إبادة الحشاشين فى فارس ١٢٥٧م
- خراب بغداد ١٢٥٨م
- الجورجيون والأرمن
- المغول فى سوريا ١٢٥٩م
- سقوط دمشق ١٢٦٠م
- موت هولاكو ١٢٦٥م
- معاقبة الأرمن فى كيليكيا ١٢٦٦م

١٢٥٦م هولاكو فى الطريق

فى شهر يناير ١٢٥٦م انطلق هولاكو من بلاد ما وراء النهر على رأس جيش مغولى ضخم . وهولاكو هو أخو الخان الأعظم قبلاي ، وكان يعانى من نوبات من الصرع التى ربما كان لها أثرها فى وحشيته وشراسته . وكان محبوبا من المسيحيين ، إذ كانت زوجته الرئيسة دوكوز خاتون مسيحية نسطورية غيوزة ، وكانت تتمتع بأقوى نفوذ فى بلاط هولاكو ، وقد كانت كراهيتها للإسلام شديدة ، وقد حرصت على تقديم يد المساعدة للمسيحيين من أية ملّة .

وكان هدف هولاكو الأول هو مقر الحشاشين فى فارس ، وكان عاقد العزم على القضاء على هذه الطائفة التى سبق وأن قتلت باغاتاي ، وهو الإبن الثانى لجنكيز خان . أما هدفه الثانى فكان بغداد ومنها يستطيع التقدم إلى سوريا . وكان قد أعد عدته بعناية لتنفيذ خطته ، فأصلح الطرق عبر التركستان وفارس وشيّد الجسور ، وأرسل الطلبات لإستجلاب عربات آلات الحصار من الصين ، ونزع القطعان من الرعاة كي يصبح الكلا وفيرا لخيول جيشه الضخم .

وكان مع هولاكو ، بخلاف زوجته المسيحية دوكوز خاتون ، اثنتان من زوجاته الأخريات ، وابناء الأكران . وقدمت كل قبيلة فى الكونفدرالية خمس رجالها المقاتلين ، فضلا عن آلاف الرماة الصينيين المهرة فى إطلاق السهام المشتعلة . وقبل ثلاث سنوات كان قد أرسل جيشا يقوده أكبر قواده ، كيتبوغا النسطورى ، الذى تمكن من توطيد السلطة المغولية فى أهم المدن الإيرانية واستولى على بعض معاقل الحشاشين الأقل أهمية ، وذلك قبل وصول هولاكو .



١٢٥٧م إبادة الحشاشين فى فارس

دخل هولاء اراضى فارس وتقدم تقدما بطيئا مستوليا على ديماوند وعباس آباد ، إلى أن وصل إلى سهول الحشاشين . وبظهور هذا الجيش الهائل أمام قلعة (الموت) وضرب الحصار المشدد عليها خضع زعيم الحشاشين ركن الدين خورشاه ، وذهب بنفسه إلى خيمة هولاء لإعلان خضوعه . غير أن قائد القلعة رفض إطاعة أوامره باستسلامها ، فاستولى عليها المغول عنوة بعد أيام قلائل . ورغم أن هولاء وعد بالإبقاء على حياة ركن الدين خورشاه ، إلا أن هذا الأخير التمس إرساله إلى قراقوم أملا فى الحصول على شروط أفضل من الخان الأعظم مونغا . وقد رفض مونغا مقابلته قائلا إنه من الخطأ إنهاء الخيول الكريمة فى مثل تلك البعثة العقيمة . وكانت هناك قلعتان للحشاشين بقيتا صامدتين أمام المغول ، وقيل لركن الدين أن يعود إلى بلاده للترتيب لإستسلام القلعتين . وفى الطريق قُتل مع حاشيته . وجُمع الحشاشون تحت ذريعة إجراء إحصاء ، وقتلوا بالألوف . وبنهاية سنة ١٢٥٧م ، لم يكن فى الجبال الفارسية سوى القليل من اللاجئين الحشاشين ، أما الحشاشون فى سوريا فكانوا بعيدين عن قبضة المغول ، لكنهم تنبأوا بمصيرهم .

وكان بقلعة الموت مكتبة ضخمة تزخر بكتب الفلسفة وعلوم السحر ، وأرسل هولاء حاجبه المسلم عطاء الملك يوفينى لفحصها ، فنحى عطاء الملك جانبا نسخ القرآن الكريم والكتب ذات القيمة العلمية والتاريخية وأحرق أعمال الزندقة . وفى نهاية سنة ١٢٥٧م انطلق الجيش المغولى من همذان وعبر نهر دجلة عند الموصل وسار جنوبا ، وقد انضم إليه كيتبوغا الذى سار على الضفة الأخرى ، وحاصروا بغداد وخربوها وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم .

ظهر هولاءكو أمام بغداد فى الثامن عشر من يناير ١٢٥٨م وفى الأسبوع الأول من فبراير قصف المغول أسوار المدينة قصفا عنيفا ، وبانهيار الأسوار فى العاشر من فبراير اقتحم المغول المدينة بأعدادهم الغفيرة ، وعلى الفور برز الخليفة وسلم نفسه لهولاءكو مع قادة الجيش ورجال الدولة ، فذبحوا جميعا ما عدا الخليفة إلى أن دخل هولاءكو المدينة والقصر فى منتصف فبراير. وبعد أن كشف الخليفة عن مخبأ كنوزه قُتل هو الآخر.

ودارت رحى المذابح فى المدينة ، لم يسلم منها من استسلم من قوره ولا من قاوم ، وهلك النساء مع الأطفال والرجال . ووجد مغولى فى شارع جانبى أربعين رضيعا حديثى الولادة ماتت أمهاتهم ، فأخذته الرحمة بهم فقتلهم إذ كان يدرك عدم إمكان بقائهم على قيد الحياة وليس هناك من يرضعهم .

وترد أدق تفاصيل تلك الأحداث فى الكتاب الثانى من سلسلة الممالك المفترى عليهم : (سيف الدين قطز قاهر المغول) .

الجورجيون والأرمن

كان الجنود الجورجيون أول من اقتحم الأسوار، وكانوا على قدر هائل من الشراسة فى تخريبهم وفى قتلهم . وعلى مدى أربعين يوما تقريبا قُتل ثمانون ألف مواطن فى بغداد ، ولم يسلم من القتل سوى القليل من المحظوظين الذين لم تكتشف أماكن اختبائهم فى بعض الأقبية ، وعدد من البنات والأولاد من ذوى الجاذبية أخذوا عبيدا ، والمسيحيون الذين لجأوا إلى الكنائس وتركوا دون إزعاج بأمر خاص من دوكوز خاتون النسطورية .

وابتهج المسيحيون فى آسيا كلها لأنباء تدمير بغداد ، وفى نشوتهم كتبوا عن سقوط بابل الثانية ، وهتفوا لهولاءكو وزوجته دوكوز على أنهما قسطنطين وأمه هيلينا . والمعروف أن

قسطنطين (الذي مات سنة ٣٣٧م) هو أول امبراطور بيزنطى اعتنق المسيحية وناصر الكنيسة ووهبها المباني ، خاصة فى فلسطين ، وأمر أن يكون يوم الأحد عطلة رسمية ويعتبر فى الشرق قديسا ؛ وهيلينا هى أم الإمبراطور قسطنطين ، كان زوجها قد هجرها لكنها نالت مركزا مشرفا بعد اعتلاء ابنها العرش الإمبراطورى وزارت الأراضى المقدسة ، ويقول التراث الكنسى المتأخر إنها اكتشفت الصليب الذى صُلب عليه المسيح . وامت الفرحة كافة المسيحيين فى آسيا كلها وقالوا بأن هولاءكو ودوكوز خاتون ما هما إلا قسطنطين وهيلينا قد بعثا من جديد لأن الرب اتخذهما وسيلة للإنتقام من أعداء المسيح .

١٢٥٩م المغول فى سوريا

ترك هولاءكو بغداد خرابا ، وتحول شمالا إلى الجزيرة يحكم قبضته عليها أولا ، خاصة إخضاع ميفارقين وصاحبها الكامل الأيوبي الذى تمرد على السيادة المغولية بأن صلب قسما يعقوبيا بعث به هولاءكو . واستقبل هولاءكو مبعوثين من دول كثيرة قبل مغادرته ، وجاءه بدر الدين لؤلؤ أتاج الموصل المسن معتذرا عن مساوئه السابقة ، وسرعان ما توافد سلاطين السلاجقة ، إينا كيخوسرو وكايكوس الثانى وقلج أرسلان الرابع ، وأخيرا أرسل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ابنه العزيز لتقديم فروض الولاء والإحترامات فى اتضاع مشين لهولاءكو. وحوصرت ميفارقين واستولى عليها هولاءكو فى باكورة ١٢٦٠م بفضل مساعدة حلفائه الجورجيين والأرمن ، فذبحوا المسلمين وأبقوا على المسيحيين ، وعذب الكامل بأن أجبر على أن يأكل لحم بدنه هو نفسه إلى أن مات .

وفى نفس العام غزا هولاءكو سوريا واستولى على نصيبين والرها وحران والبيرة ، وفى باكورة العام الجديد حاصر المغول حلب وكان السلطان الناصر يوسف فى دمشق ، وكان يأمل أن يتجنب الخطر لوجود ابنه فى معسكر هولاءكو ، ولما تبين أنه على خطأ عرض

قبول سيادة مماليك مصرالذين وعدوه بالمساعدة ، لكنهم لم يكونوا على عجلة من أمرهم .
ثم إنه جمع جيشا خارج دمشق ، واكتشف تأمر بعض ضباطه الأتراك فى الوقت المناسب
فهربوا إلى مصر ، مما أضعف الجيش بحيث كفّ الناصر يوسف عن الأمل فى الخروج
لإنقاذ حلب .

ودافعت حلب دفاع الشجعان بقيادة تورانشاه ، عم الناصر يوسف ، لكن الأسوار تداعت
من القصف بعد ستة أيام ، وحدث المذابح المعتادة التى قتل فيها المسلمون ونجا المسيحيون
بخلاف بعض الأرثوذكس الذين لم تتضح كنيستهم فى خضم التقتيل . وصمدت القلعة
لأربعة أسابيع أخرى بقيادة تورانشاه ، وعندما سقطت أظهر هولاکو رحمة غير عادية ولا
متوقعة ، إذ أبقى على حياة تورانشاه لكبر سنة ولشجاعته ، واستولى على ما وجده من
كنوز ضخمة ، وضم حلب إلى أمير حمص السابق ، الأشرف ، الذى كان على قدر من
البصيرة جلعه يذهب إلى معسكر المغول كعميل قبل شهر قليلة .

ثم سار هولاکو إلى أن أصبح على حدود أنطاكية التى ذهب أميرها بوهمند وحموه ملك
أرمينيا إلى معسكره لتقديم احتراماتهما . وقد سبق للملك هيثوم أن زود هولاکو بقوات
تعزيزية وكوفى ببعض اسلاب حلب ، وصدرت الأوامر للأمراء السلاجقة بإعادة الأراضى
التى تم الإستيلاء عليها فى كيليكيا ؛ كما كوفى بوهمند بإعادة عدة مدن وقلاع كانت تابعة
للمسلمين منذ انتصار صلاح الدين ومن بينها اللاذقية التى أعيدت إلى أنطاكية ، وفى
المقابل كان مطلوبا من بوهمند تنصيب البطرق اليونانى إيوثيمىوس فى عاصمته مكان
البطرق اللاتينى .

١٢٦٠م سقوط دمشق

لم يحاول السلطان الناصر يوسف الدفاع عن عاصمته دمشق ، إذ ما أن علم بسقوط
حلب واقترب المغول حتى هرب إلى مصر لاجئا لدى المماليك ، لكنه غير رأيه وكر عائدا

باتجاه الشمال ، فأسره المغول . وأرسلت حماه وفدا إلى هولاکو فى فبراير ١٢٦٠م قدم إليه مفاتيح المدينة ، وبعد أيام قلائل هذا وجهاء دمشق حذوهم ، وفى أول مارس دخل كيتبوغا دمشق وبصحبه ملك أرمينيا وأمير أنطاكية . ولأول مرة منذ ستة قرون يشهد مواطنو عاصمة الخلافة الأموية القديمة ثلاثة زعماء مسيحيين راكبين فى شوارع المدينة فى موكب المنتصرين .

وبسقوط المدن الثلاث العظام بغداد وحلب ودمشق بدا أن الإسلام فى آسيا قد آذن بالمغيب ، وفى دمشق بدأ بروز المسيحيين المحليين ، وأظهر كيتبوغا تعاطفه مع المسيحيين ، إذ كان هو نفسه مسيحيا . وللمرة الأولى منذ القرن السابع الميلادى يجد مسلمو وسط سوريا أنفسهم أقلية مضطهدة تتحرق شوقا للإنتقام .

١٢٦٥م موت هولاکو

فى شهر يوليو ١٢٦٤م عقد هولاکو آخر مؤتمر له فى معسكره بالقرب من تبريز حضره كل أتباعه بمن فيهم الملك داود ملك جورجيا ، والملك هيثوم ملك أرمينيا ، وبوهمند أمير أنطاكية ، وكان هيثوم وبوهمند فى حالة من الخجل أمام هولاکو ، إذ اختطفا فى العام السابق بطرق أنطاكية إيثوميثيوس الذى أصر هولاکو فى عام ١٢٦٠م على تنصيبه ، وأخذه إلى أرمينيا واستبدلا به البطرق اللاتينى أوبيزون فى أنطاكية . وكان هولاکو مدركا لأهمية التحالف مع البيزنطيين كوسيلة لكبح أتراك الأناضول ، فكان يتفاوض على سيدة من العائلة الإمبراطورية فى القسطنطينية ليضيفها إلى زوجاته . واختار الإمبراطور ميخائيل لهذا الشرف ابنته من السفاح ، ماريا ، ورافقها إلى تبريز البطرق إيثوميثيوس الذى كان لاجئا فى القسطنطينية والذى عاد الى الشرق بدعوة صريحة لا شك فيها من هولاکو . وفى ٨ فبراير من العام التالى ١٢٦٥م مات هولاکو بعد أن سحب قسما كبيرا من قواته وأرسلها الى موطنه شرقا نظرا للخلافات العائلية التى أعقبت موت الخان الأعظم مونغكا سنة ١٢٥٩م ، الأمر الذى يسّر للمماليك الإنتصار فى عين جالوت .

١٢٦٦م معاقبة الأرمن في كيليكيا

وفضلا عن ذلك الزواج الكاثوليكي بين هيثوم ملك أرمينيا وهولاكو المغولي ، والمتمثل في التحالف الصريح للهجوم على العالم الإسلامي ، قام هيثوم في سنة ١٢٦٤م بمهاجمة عين تاب ، فوجه السلطان بيبرس إلى حلب جيشا من عساكر حماه وحمص .

وأثناء أن كان بيبرس يتجول بحملاته في الجليل ، تجمع في حمص الجيش المملوكي الثاني بقيادة أقدر الأمراء ، قلاوون الذي أغار على حصن قولا وحلبا ومدينة أرقا التي تتحكم في مدخل طرابلس من البقاع ، ثم اتجه شمالا ليلحق بجيش المنصور صاحب حماة . وسار جيشاهما المتحدان إلى حلب وانحرفا غربا إلى داخل كيليكيا . وكان الملك الأرميني هيثوم يتوقع هجوما مملوكيا ، وكان قد حاول في سنة ١٢٦٥م على أثر موت هولاكو أن يتصالح مع بيبرس ، وكانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على أخشاب جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وزوج ابنته بوهمند يسيطران على تلك الغابات ، فكانا يأملان في استغلال تلك الغابات كورقة تفاوض . وفي عام ١٢٦٦م علم هيثوم بأن هناك هجوما مملوكيا وشيكا ، فذهب إلى بلاط الخان المغولي في تبريز يستجدي مساعدة المغول . وعندئذ اندلع القتال في كيليكيا . وكان يقود الجيش الأرميني إينا هيثوم ، ليو وثوروس ، وانتظر الجيش الأرميني عند البوابات السورية بينما كان فرسان المعبد في جراس يحرسون جناحيه . بيد أن المماليك انحرفوا شمالا ليعبروا جبال الأمانوس ، فسارع الأرمن لإعتراض طريقهم أثناء هبوطهم في السهل الكيليكى ، ونشبت معركة حاسمة يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦م قرب دريساك هلك فيها الجيش الأرميني أمام الأعداد الغفيرة ، وقتل ثوروس ابن الملك هيثوم ، وأسر الآخر ليو . واكتسح المسلمون المنتصرون كيليكيا . وأثناء أن كان قلاوون وأمراؤه المماليك ينهبون ميناء أياس وأضنا وطرسوس ، قاد المنصور صاحب حماه جيشه مارا بالمصيصة إلى العاصمة الأرمينية سيس حيث نهب القصر وحرق الكتدرائية وذبح بضعة آلاف من السكان . وفي نهاية سبتمبر انسحب

المنتصرون إلى حلب ومعهم أربعون ألف أسير تقريبا وقوافل ضخمة من الأسلاب . وكان الملك هيثوم قد أسرع عائدا من بلاط الخان ومعه صحبة قليلة العدد من المغول ، فقط ليجد وريثه أسيرا وعاصمته أطلالا وبلده كله خرابا . ولم تبرأ المملكة الكيليكية من تلك الكارثة قط ، ولم تعد قادرة على أن تلعب أكثر من دور سلبي في سياسات آسيا .

وحاول هيثوم استرداد ابنه الأسير من بيبرس ، ولم يفلح في ذلك إلا بعد أن تخلى للسلطان عن عدة مراكز هامة من بينها دربساك ومرزبان ورعبان ، وكلها تتحكم في طرق المواصلات بين أرمينيا وبلاد الشام والعراق .



١٣٥

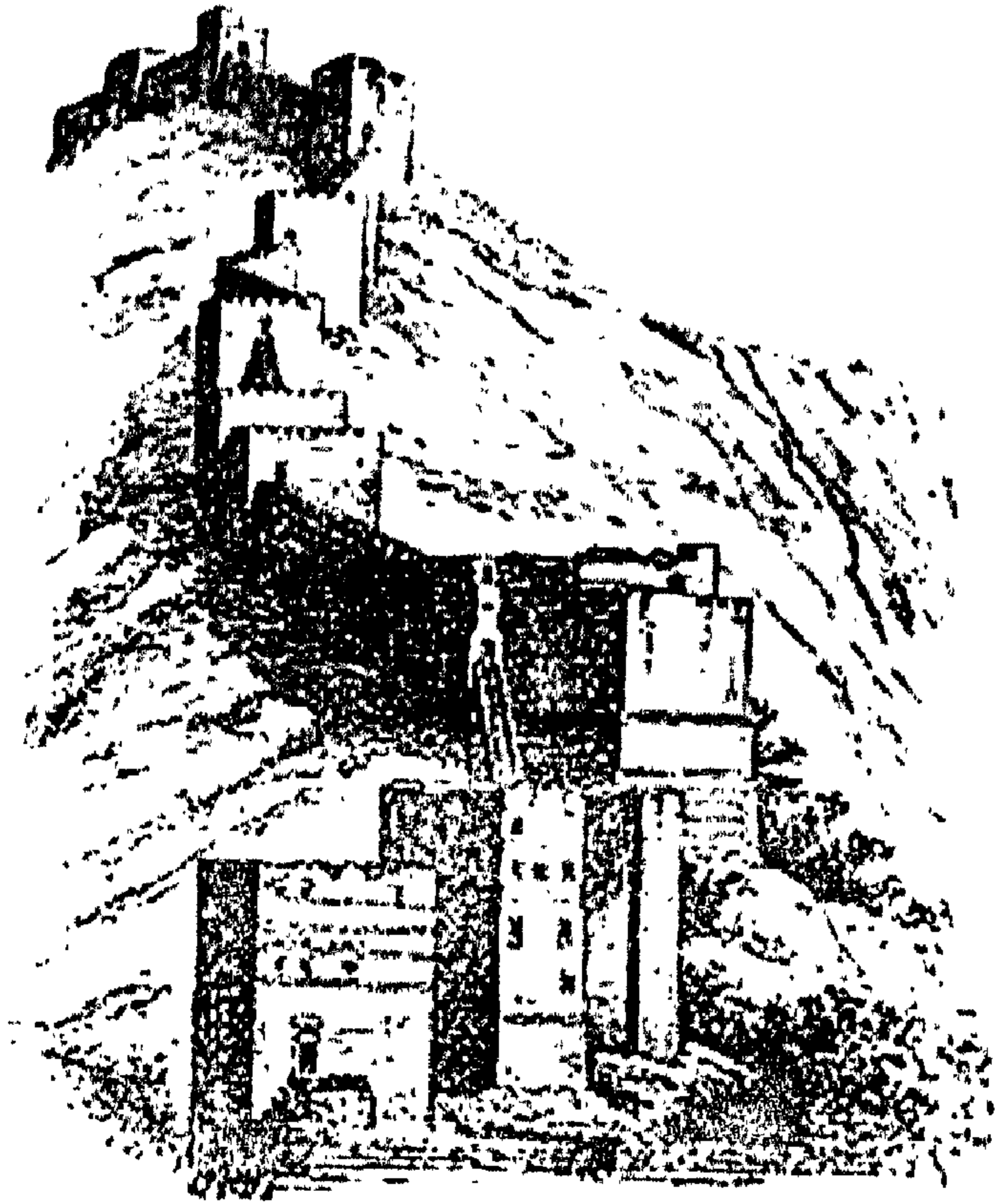
الفصل السادس

١٢٦٨ م سقوط أنطاكية

♣ نبذة تاريخية عن أنطاكية

♣ الإستيلاء على أنطاكية

♣ رسالة بيبرس إلى بوهمند أمير أنطاكية بعد الاستيلاء عليها



تحصينات أنطاكية حوالى سنة ١٢٠٠م

نبذة تاريخية عن أنطاكية

يرجع تاريخ أنطاكية إلى القرن الرابع قبل الميلاد عندما أنشأها أحد قواد الإسكندر الأكبر ، سيليوكوس الأول نيكاتور، وجعلها عاصمة امبراطوريته .

ولأنطاكية أهمية خاصة في تاريخ المسيحية ، ففيها بشر بولس لأول مرة ، وفيها أطلق على أتباع يسوع إسم المسيحيين بادئ ذي بدء . إذ جاء في الكتاب المقدس، العهد الجديد ، سفر أعمال الرسل:

(ودُعِيَ التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا) (أعمال الرسل ، ١١ : ٢٦) .

وبانتشار المسيحية ، أمست أنطاكية واحدة من أربع بطريرقيات رئيسية مع القدس والإسكندرية وروما . وهي اليوم مقر بطريرقية الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية .

وظلت أنطاكية مدينة هامة في الإمبراطورية الرومانية لعدة قرون ، وفيها أقام الإمبراطور قسطنطين الثاني كتدرائية ثمانية الأضلاع أصابها زلزال عام ٥٢٦ م . واحتل الفرس المدينة في ٥٤٠ م، ثم استعادها البيزنطيون ، لكن احتلها العرب المسلمون عام ٦٣٦ م . وبعد ما يزيد على ثلاثة قرون استعادها الإمبراطور البيزنطي نيسفوراس فوكاس الثاني سنة ٩٦٩ م ، ثم استولى عليها الأتراك السلاجقة سنة ١٠٨٥ م . وبعد ثلاث عشرة سنة ، أي في عام ١٠٩٨ م ، احتلها الصليبيون في حملتهم الصليبية الأولى ، وأصبحت عاصمة إمارة أنطاكية ، إلى أن استولى عليها في القرن الثالث عشر الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سنة ١٢٦٨ م .



١٢٦٨م الإستيلاء على أنطاكية

كان الأمير بوهمند السادس أميرا على أنطاكية وطرابلس ، وكانت أنطاكية وقت أن زحف عليها بيبرس تحت إمرة ياورها الكونستابل سيمون مانسل ، وكانت زوجته أرمينية وفى نفس الوقت تربطها بزوجة بوهمند صلة قرابة .

وكانت أسوار المدينة قد أصلحت ورممت ترميما جيدا ، لكن الحامية لم تكن كبيرة العدد بما يكفى لحراسة الأسوار الممتدة امتدادا كبيرا .

وفى حركة طائشة ، تهور الكونستابل وقاد بعض جنوده خارجا من المدينة فى محاولة للتفاوض مع بيبرس ، غير ان جنود بيبرس أسروه وأمره بأن يتدبر ترتيب استسلام الحامية . وحاول الكونستابل الإتصال بقواده داخل المدينة وإقناعهم بالإستسلام ، لكن قواده رفضوا الإستماع إليه .

وفى اليوم التالى هاجم جنود بيبرس المدينة ، لكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها ، وافتتحت المفاوضات مرة أخرى ، ولكن بلا نجاح .

وفى ١٨ مايو ١٢٦٨م قام الجيش المملوكى بهجوم عام على الأسوار كلها ، ونشطت آلات الحصار وراجمات الأحجار والأثقال ، وأفلحت فى إحداث ثغرة فى الدفاعات الممتدة أعلا جبل سلببوس ، وتدفق المسلمون من تلك الثغرة إلى داخل المدينة . وعلى الفور أمر أمراء السلطان بإغلاق بوابات المدينة حتى لا يتمكن أي فرد من الهرب ، وصدرت الأوامر بقتل كل من يتصافد وجوده فى الشوارع ، وارتكبت مذبة كبيرة لم يسلم منها سوى الجبناء الذين لم يفارقوا بيوتهم ، على أنهم بقوا على قيد الحياة لكي ينهوا أيامهم فى الأسر . وتمكن بضعة آلاف من الهرب مع عائلاتهم ولانوا بالقلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل . نجوا بحياتهم ، لكن الأمراء اقتسموهم .

وأصيب المؤرخون - والمسلمون من بينهم - بالصدمة لتلك المجزرة التي وقعت . فقد أزهقت فيها أرواح كثيرة بريئة ، وسالت دماء غزيرة . وتساءل بعض المؤرخين : هل كان بيبرس ينتقم لتلك المجزرة الرهيبة الأكثر هولاً التي ارتكبتها الصليبيون في القدس بادي الأمر عام ١٠٩٩م ، والتي ملأت شوارع القدس ومسجدها بجثث ودماء المسلمين واليهود أيضاً ، بحيث هجرها الصليبيون قرابة أسبوع ؟

وفي اليوم التالي ١٩ مايو ، أمر السلطان بجمع الأسلاب وتقسيمها . وبرغم أن الإزدهار الذي كانت تتمتع به أنطاكية قد اضمحل لعدة قرون ، إلا أنها كانت أغنى المدن الصليبية ، وكانت كنوزها هائلة ، ووجد المنتصرون أكواما من الذهب والفضة ، وعملات كثيرة وفيرة بحيث كانت تعطى في أوعية من كثرتها . وكان عدد الأسرى كبيراً بحيث لم يكن هناك جندي في جيش السلطان لم يحصل على عبد ، وما بقى من العبيد انخفض سعره انخفاضاً شديداً ، فكان الصبي يباع باثنى عشر درهما والبنت بخمسة دراهم ، وسُمح للمواطنين الأكثر ثراءً بافتداء أنفسهم . وأطلق سراح الكونستابل سيمون مانسيل وتقاعد في أرمينيا .

وعلى الرغم من أن انطاكية بقيت مع الصليبيين طوال ١٧١ سنة ، وبرغم أنها اشتهرت بكونها عاصمة أول إمارة أقامها الصليبيون في الشرق الفرنجي ، فإن أحوال المسيحيين الوطنيين لم تتحسن إلا بقدر ضئيل للغاية ، وكان ذلك بمثابة عقاب لهم لما قدموه من مساعدة لا للفرنج وحسب ، وإنما للعدو الأخطر على الإسلام ، وهم المغول . وقد كان دمارها ضربة مرعبة للهبة المسيحية ، وجر وراءه انهياراً سريعاً للمسيحية في شمال سوريا .



رسالة بيبرس إلى بوهمند أمير أنطاكية

بعد الإستيلاء عليها

قد علم القومص الجليل المبجل ، المعزز الهمام ، الأسد الضرغام ،
 بيمند (يعنى بوهمند) فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ،
 كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية
 إلى القمصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة
 محفوظة عليه ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار،
 وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمار وهدم الأعمار، وكيف كنست
 تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف
 جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف
 قُتلت الرجال واستُخدمت الأولاد وتملكت الحرائر، وكيف قطعت
 الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والسقائر .
 وكيف نُهبَت لك ولرعيّتك الأموال والحريم والأولاد والمواشى ،
 وكيف استغنى الفقير وتاهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشى .
 هذا وأنت تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلتَ
 فرعا: علىّ بهذا الصوت . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ،
 وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك وما
 بقيت ماشية إلا وهى من أيدي المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو
 محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعك تلك
 المغاير (يعنى الكهوف وهى جمع مغارة) التى هى فى رؤوس الجبال
 الشاهقة ، ولا تلك الأودية التى هى فى التخوم مخترقة ، وللعقول
 خارقة ، وكيف سُنقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر، وكيف

وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وهنا نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذى عمّ: كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشري شعبان ، ونزلنا أنطاكية فى مستهل شهر رمضان . وفى حال النزول خرجت عساكرك للمبادرة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كندا سطيلى (يعنى حاكم القلعة باللاتينية) ، فسأل مراجعة أصحابك فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وإن رأيهم فى الخير مختلف وقولهم فى الشر واحد . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول فى الإنذار والآخر، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففى بعض ساعة مرّ شأن المرشان (يعنى منظم الحفلات والمجالس) وداخل الرهبان الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان (يعنى حارس القصر) ، وجاءهم الموت من كل مكان وفتحناها بالسيف فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاربة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شئ من الدنيا ، فما بقى منا إلا وعنده شئ منهم ومنها .

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية فيها تصول والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار، وداماتك (يعنى سيداتك) وكل أربع منهم تباع فتشتري من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ،

وصحفها من الأناجيل المزورة قد نشرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت .
ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه
الراهب والقسيس والشماس ، والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء
المملكة قد دخلوا فى المملكة . ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك
تحترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك
وأحوالك قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت وزالت ،
لكنت تقول : ياليتنى كنت ترابا! وياليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا ،
ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفى تلك النيران بماء
عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد
أخذت فى السويدية بمراكبك فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن
الإله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها والرب الذى أعطاك قلعتها
منك قلعتها ، ومن الأرض اقتلعها .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون
الإسلام، وهو دير كوش وشقيف تلميس وشقيف كفر دنين وجميع ما
كان فى بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي ، وفرقناهم
فى الدانى والقاصي ، ولم يبق شئ يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر،
قلو استطاع لما سمي بالعاصي . وقد أجرى دموعه ندما وكان يذرفها
عبرة صافية ، فما هو أجراها بما سفكناه فيه دما .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول
العمر بكونك لم يكن لك فى أنطاكية فى هذه المدة إقامة ، وكونك ما
كنت فيها فتكون إما قتيلا وإما أسيرا ، وإما جريحا وإما كسيرا ،
وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل الله
ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ، ولما لم يسلم

أحد يخبرك بما خبرناك ، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لنتحقق الأمر على ما جرى .

وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبرا ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبرا .

قال : ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب .

(كتاب السلوك للمقرئ ج ١ ، ق ٣ ٩٥٥-٩٦٩)

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي بن خلكان مبشرا بفتح أنطاكية

من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر

أدام الله سعادة المجلس السامي القضائي ، ولا برح يؤثر البشائر حشايا المنابر، ويجري من السرور الهاجم عيون المحابر، ويسجد لها قلم الناظم والناثر، ويتلقاها ببشر إذا تأمل قادمه قال كم ترك الأول للآخر. هذه المكاتبة تتحدث بنعمة الله التي تهلل لها وجه الإيمان ؛ وهلل بها من أهله كل لسان ، وجاءت بحمد الله حلوة المجتنى حافة بالنصر من هنا ومن هنا ، وذاك بفتح أنطاكية التي لم تتطرق إليها الحوادث والخطوب ، ولا خرق حديث فتحها الأسماع ولا هجس في القلوب ، وادخرها الله لنا ليخصنا بفتحها الوجيز، ويجعلها بابا لما يليها من بلاد الكفر نلج منه بمشيئة الله وما ذلك على الله بعزيز. وهو أنا لما فرغنا من فتوحاتنا التي سبق بها الإسلام ، وإشارتنا التي خصت

وحصت طرابلس الشام ، ثنينا العنان إلى هذه الجهة ، فشاهدنا منها ما يروق النواظر ، ورأينا مدينة يجتمع داخل سورها الأنس والوحش الطائر للاستيطان والبادي والحاضر ، تحف بها أسوار لا يقطعها الطائف في يوم سيرا ، ولا يدرك الناظر من أولها لها أخيرا ، وبها رجال غدوا إليها من كل حدب ينسلون ومن كل هضبة ينزلون ، وفي ظلال كل مطهم يتقبلون . وكان نزولنا عليها في يوم الأربعاء غرة شهر رمضان المعظم ، فلم يكن إلا بقدر ما نزلنا إلا ورسلمهم قد حضروا ليمسحوا أطراف الرضا ويتقاضوا من العفو أحسن ما يقتضى . فما ألوى عليهم حلمنا ولا عرج ، ولا نفس عنهم كربة ولا فرج ، فزحفنا إليها في يوم السبت بكرة وهو رابع الشهر ، فلم يلبثوا إلا ساعة من نهار وقد دخلت عليهم من أقطارها ، وتسور العسكر المنصور من أسوارها ، وامتدت السنة الصوارم وأسنة الرماح ، وشهرت البيض الصفاح ، وأريققت الدماء واتحيت النساء ، وغنمت الأموال وجندلت الأبطال . ووجد العالم من التحف والنعم ما لا كان يمر في خلد ولا يخطر في بال ، وكتابنا هذا واليد الإسلامية لها متسلمة وفيها متحكمة . فالمجلس يأخذ حظه من هذه البشرى ويرى فيها هذه الآية الكبرى . وما نريهم من آية إلا وهي أكبر من الأخرى . ويتلقاها ببشر فقد بعثنا بها الله في أحسن رونق من النصر ، وأقبلت بحمد الله كما بدأت أول مرة . فليشعها المجلس في كل باد وحاضر ، ولينشر خبرها على أكباد المنابر . والله يكرمه يجعل سعادته من أتم الذخائر ، إن شاء الله تعالى . كتب رابع شهر رمضان المعظم سنة ست وستين وستمائة .

(ذيل مرآة الزمان لليوينى ج ٢ ، ٣٨٢-٣٨٤)

١٤٧
الفصل السابع

بييرس
ومملكة النوبة المسيحية

دخل الإسلام مصر سنة ٦٤٠م ، وبعد أحد عشر عاما تمكن والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح من التوغل جنوبا حتى دنقلة عاصمة النوبة التى كانت آنذاك مملكة مسيحية وحاصرها حصارا شديدا حتى طلب ملكها الصلح . وتم الإتفاق بين الدولتين مصر والنوبة بما أطلق عليها آنذاك بمصطلح البَقْط (أي العهد) الذى ينص على أن يرسل ملك النوبة لبیت المال فى مصر عددا من الرقيق بعدد أيام السنة (أي ٣٦٥ عبدا) وفى المقابل ترسل مصر إلى النوبة ألف أردب من الغلال سنويا بالإضافة إلى كميات أخرى من الحبوب والأقمشة .

ويجمع المؤرخون على أن ذلك البقط لم يكن يعنى جزية ولا خراج ، وإنما هو نوع من الإتفاق الإقتصادي بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية . ودام ذلك الوضع حتى بدأت الحملات الصليبية ، وبذا ظهرت النعرة الدينية بين الجارتين .

ووجد ملوك النوبة فى انشغال ببيرس بتثبيت دعائم دولة المماليك وحروبه ضد الصليبيين والمغول والأرمن ، فرصة سانحة للعدوان على مصر . وفى سنة ١٢٧٢م انتهز داود ملك النوبة فرصة انشغال السلطان ببيرس بتوجيه جيوشه ضد أرمينيا ، وهاجم أسوان وأسر الكثير من أبنائه المسلمين ، كما أغار على عيذاب واعتدى على أبنائه المسلمين على نحو يدل على تغلب النعرة الصليبية على مملكة النوبة .

وفى عام ١٢٧٥م جاء الى ببيرس ملك النوبة المخلوع (شكندة) شاكيا ما فعله ابن أخيه الملك داود ملك النوبة لا من خلعه من العرش وحسب ، وإنما من بلغ الإساءة التى لحقته دون مراعاة لصلة القربى . وعلى الفور أعد ببيرس حملة كبيرة بصورة خاصة وأمر عليها الأميرين شمس الدين أفسنقر وعزالدين الأفرم . وانطلقت الحملة فى يناير ١٢٧٦م ، وصحبها شكندة نفسه وبأوامر من ببيرس لقائدى الحملة بتسليم شكندة كل ما يفتحانه من بلاد النوبة . ونجحت الحملة نجاحا باهرا كان من نتيجته أن هرب الملك داود بعد أن قتل وأسر أغلب رجاله ، ومن بين الأسرى أخوه شنكو وأمه وأخته . واستقبل ببيرس الحملة فى

القاهرة بمظاهر الحفاوة ، واستعرض الجمع الغفير من الأسرى . وقد أمر ببيرس عند بيع الأسرى عدم التفريق بين المرأة و غلامها ، وألا يباع أحد من الأسرى ليهودى أو مسيحي . ولم يترك جيش ببيرس النوبة إلا بعد أن قدم شكندة العهد والميثاق بطاعة السلطان ببيرس . وفيما يلى ما ذكره كل من النويري فى "نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٢٥٩" ومفضل بن أبى الفضائل فى "كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦" من نص اليمين التى حلف عليها شكندة ملك النوبة الجديد بدنقلة للظاهر ببيرس سنة ١٢٧٦م ، وجاء به :

والله ، والله ، والله! وحق الثالث المقدس ، والإنجيل الطاهر،
والسيدة الطاهرة العذراء ... اننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى
هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ببيرس ،
وانى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ...

أما شروط الإتفاق بين ببيرس وشكندة فكان من أهمها :

♣ أولاً: تنفيذ اتفاقية البقط القديمة ، أى يرسل ملك النوبة الرقيق الى مصر مقابل ارسال الغلال إليه . وتقرر أن يرسل شكندة بعض الهدايا الإضافية للسلطان ، يحددها المقريزي بثلاثة فيلة ، وثلاث زرافات ، وخمسة فهود إناث ، ومائة من الصهب الجياد ، ومائة من الأبقار الجياد .

♣ ثانيا : امتداد السيادة المصرية بصورة فعلية على بلاد النوبة . وهذه هى المرة الأولى منذ الفتح العربى لمصر . ونصت على أن يخصص نصف دخل بلاد النوبة لسلطان مصر ، ويبقى النصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها .

♣ ثالثا : تعهد شكندة ملك النوبة بالعمل على الحصول على كل متعلقات الملك داود وأسرته وارسالها الى السلطان .

♣ رابعا : عُرِض على شكندة الإسلام أو الجزية أو القتال ، فاختر الجزية ، وتعهده أن يدفع كل فرد من رعاياه دينارا في كل سنة .

♣ خامسا : اطلاق سراح المسلمين ، وخاصة الذين أسره داود من أبناء اسوان وعيذب ، وأفرج عنهم وأعيدوا الى أوطانهم . كما تسلم المماليك عشرين أميرا من أمراء النوبة ليكونوا رهائن تحت تصرف السلطان .

ويروى المقرئ في (السلوك ج ١ ص ٦٢٣) أن بيبرس أنشأ ديوانا للنوبة في القاهرة وعهد إلى الوزير صاحب بهاء الدين بن حنا الإشراف على الجزية والخراج الواردة من النوبة وتعيين العمال لذلك .

وفيما بعد وقع داود ، ملك النوبة السابق ، أسيرا لدى بعض خصومه ، فأرسلوه الى السلطان بيبرس الذي أمر بحبسه مع أمه وأخيه إلى أن مات في سجنه .



خاتمة

وفاة بيبرس

لم يعيش بيبرس طويلا بعد مغامرته في الأناضول . وهناك قصص كثيرة رويت حول وفاته ؛ فاستنادا إلى بعض المؤرخين مات متأثرا بجراحاته التي أصيب بها في حملته الأخيرة ؛ واستنادا إلى البعض الآخر أفرط في شراب القُمَز ، وهو لبن الفرسة المخمر الذي يحبه الأتراك والمغول . غير أن الشائعة السائدة هي أنه أعد القمز المسموم للأمير الأيوبي صاحب الكرك ، القاهر بن الناصر داود ، الذي كان مع جيشه ، والذي كان قد أساء إليه ، ثم شرب بإهمال من نفس الكأس قبل تنظيفه . ومات يوم أول يوليو ١٢٧٧ م .

"ولقد أراح موته أعداء المسيحية منذ صلاح الدين . فعندما أصبح بيبرس سلطانا كانت الأراضي الفرنجية تمتد بطول الساحل من غزة إلى كيليكية ، مع وجود قلاع ضخمة في داخل البلاد لحمايتها من الشرق . وعلى مدى حكمه الذي استمر سبع عشرة سنة حصر الفرنج في مدن قليلة بطول الساحل ، عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، مع مدينة اللاذقية المعزولة ، وقلعتي عثليت ومرقب . ولم يطل به العمر ليشهد إزالتها إزالة كاملة ، بيد أنه جعل إزالتها أمرا حتميا . وكانت شخصيته تتميز بقليل من الخصال التي أكسبت صلاح الدين الإحترام حتى من أعدائه ... وكحاكم ، كان من أعظم حكام زمانه ."

(من ترجمتنا لموسوعة تاريخ الحملات الصليبية)

(ج ٣ ، ص ٤٠١ للسير ستيفن رانسيمن)



***Tombeau de Baibars qui expulsa les croisés du Krak,
ce que Saladin n'avait pas réussi à faire***

قبر بيبرس الذي طرد الصليبيين من قلعة الكرك
الأمر الذي لم ينجح فيه صلاح الدين

المراجع العربية (مرتبة ترتيباً أبجدياً)

- ١ - ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد : (زبدة الحلب من تاريخ حلب) . تحقيق سامى الدهان، دمشق ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨ م .
- ٢ - ابن تغري بردي : (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) .
- ٣ - ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: (البداية والنهاية) ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١ هـ .
- ٤ - أبو الفدا : (المختصر فى أخبار البشر) .
- ٥ - أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل : (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦ م .
- ٦ - ديورانت ول : (قصة الحضارة) : تعريب محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠ م .
- ٧ - سيدة ف . صديق : بيبرس الأول سلطان مصر .
- ٨ - السير ستيفن رانسيمن: تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة نورالدين خليل .
- ٩ - السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن: (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة .
- ١٠ - عبد الحميد يونس : (الظاهر بيبيرس فى القصص الشعبى) .
- ١١ - عبد العزيز خويطر: بيبرس الأول: مجهوداته وإنجازاته .
- ١٢ - عز الدين محمد بن على بن شداد : (تاريخ الملك الظاهر) .
- ١٣ - القلقشندي ، أبو العباس أحمد : (كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ - ١٩١٩ م .
- ١٤ - محبى الدين عبد الله بن عبد الظاهر : (الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر) ، واختصرها شافع بن على فى (المناقب السرية فى السيرة الظاهرية) .
- ١٥ - مصطفى زيادة : سلاطين المماليك حتى عام ١٢٩٣ م .
- ١٦ - المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على : (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ م .
- ١٧ - النويرى : (نهاية الأرب فى فنون الأدب) .
- ١٨ - الهمذانى ، رشيد الدين بن فضل الله : (جامع التواريخ فى تاريخ المغول) ، تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، الإدارة العامة للثقافة ، ١٩٦٠ م .
- ١٩ - اليونينى ، قطب الدين ، أبو الفتح موسى بن محمد : (ذيل مرآة الزمان) ، حيدر آباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤ م .

English References

01. Amitai-Preiss, Reuven. *The Mamluk-Ilkhanid War*, 1998
02. Ashtor, Elihayu, *Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (1976).
03. Dunnigan, James F. Impact of the Mongols on Medieval Population. Cry "Havoc!" 23:25-26 (1998).
04. Glubb, John B. *The Lost Centuries*. London: Hodder & Stoughton, 1967.
05. Glubb, John B. *A Short History of the Arab Peoples*. London: Hodder & Stoughton, 1967.
06. Khowaiter, Abdul-Aziz. *Baibars the First: His Endeavours and Achievements*. London: Green Mountain Press, 1978.
07. Marshall, Robert. *Storm from the East*. London: BBC Books, 1993.
08. Muir, William. *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt AD 1260-1517*. Amsterdam: Oriental Press, 1968.
09. Peter Turaow. *Az-Zahir Baibars, Contribution to the History of the Near East in the Thirteenth Century*, trans. Muhammad Gadid.
10. Robinson, John. *Dungeon, Fire & Sword*. New York: M Evans & Company, 1991.
11. Saunders, JJ. *A History of Medieval Islam*. London: Routledge and Kegan Paul, Ltd, 1965.
12. Sir Steven Runciman, *A History of the Crusades*, Penguin Books, Cambridge University Press, London, 1991.
13. Von Grunebaum, GE. *Classical Islam: A History 600-1258*. trans. Kathleen Watson New York: Barnes & Nobles Books, 1996.



فهرس الخرائط والصور

- ١ - دولة المماليك فى مصر وسوريا ٤٧
- ٢ - ضريح الظاهر بيبرس بدمشق ٦٩
- ٣ - النمر ، شعار الظاهر بيبرس ٧٧
- ٤ - عملة نقدية تحمل اسم بيبرس ٧٩
- ٥ - درهم القاهرة (عملات نقدية) ٨١
- ٦ - مسجد بيبرس (الرواق الجنوبى) ٨٣
- ٧ - مسجد بيبرس بالقاهرة ٨٥
- ٨ - جامع بيبرس (واجهة) ٨٧
- ٩ - بقايا المدرسة الظاهرية ٨٩
- ١٠ - بقايا كنيسة فى قيسارية ١٠١
- ١١ - موقع قلعة الأكراد ١١٥
- ١٢ - قلعة الأكراد من بعد ١١٩
- ١٣ - قلعة الأكراد من الداخل ١٢٢
- ١٤ - تحصينات أنطاكية ١٣٨
- ١٥ - قبر بيبرس ١٥٥

فهرس الرسائل

- ١ - رسالة بيبرس إلى فرنج عكا من أجل ملكة بيروت ٧٦
- ٢ - رسالة بيبرس إلى القاضي ابن خلكان بفتح قيسارية وأرصوف ١٠٣
- ٣ - رسالة بيبرس إلى القاضي ابن خلكان بمناسبة أخذ صفد ١٠٥
- ٤ - رسالة بيبرس إلى فرنج عكا ١٠٩
- ٥ - رسالة بيبرس إلى مقدم الإستبارية في عكا ١١٠
- ٦ - رسالة بيبرس إلى ملك قبرص ١١٢
- ٧ - رسالة شارل ملك صقلية إلى بيبرس ١١٣
- ٨ - سؤال وجواب بين أمير طرابلس الفرنجي وبيبرس ١١٣
- ٩ - رسالة بيبرس إلى بوهموند أمير أنطاكية بعد الإستيلاء عليها ١٤٢
- ١٠ - رسالة بيبرس إلى القاضي ابن خلكان مبشرا بفتح أنطاكية ١٤٥

فهرس الجداول

- الجدول (١) الحملات الصليبية وتواريخها ونتائجها ١١
- الجدول (٢) سلاطين المماليك البحريّة ٤٤
- الجدول (٣) سلاطين المماليك البرجيّة ٤٥

الفصل	الصفحة
تصدير:	٥
مقدمة:	٧
١ - هذه السلسلة (٧)	
٢ - الحملات الصليبية (٨)	
خطاب البابا إيربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت عام ١٠٩٥م (٩)	
٣ - الإجتياح المغولى والتحالف مع الصليبيين ضد الإسلام (١٢)	
الفصل الأول : هل كان المماليك عبيدا؟	١٥
أولا : العبودية فى مسيرة الإنسان (٢٠)	
١ - نشأة الإسترقاق (٢٠)	١٠ - انجلترا (٢٤)
٢ - مصر القديمة (٢٠)	١١ - اسكندنافيا (٢٤)
٣ - قانون حمورابى (٢١)	١٢ - أوروبا (٢٥)
٤ - الصين (٢٢)	١٣ - أمريكا الشمالية (٢٥)
٥ - الهند (٢٣)	١٤ - الدنيا الجديدة (أمريكا) (٢٥)
٦ - كوريا (٢٣)	١٥ - الديانة اليهودية (٢٦)
٧ - الهند الصينية (٢٣)	١٦ - الديانة المسيحية (٢٦)
٨ - الفلبين ونيبال والملايو واليابان (٢٤)	١٧ - الإسلام (٢٧)
٩ - تايلاند وبورما (٢٤)	
ثانيا : نظرات فى ظاهرة المماليك (٢٨)	
١ - مصير العبودية (٢٨)	٣ - هل كان المماليك عبيدا ؟ (٢٩)
٢ - النخاسة (٢٩)	٤ - ظاهرة فريدة فى التاريخ (٣٦)
الفصل الثانى : بيبرس قبل توليه السلطنة	٤٩
من هو بيبرس ؟ (٥١)	١٢٢٣م - مولده (٥٢)
١٢٦٠م - عين جالوت (٥٧)	١٢٣٩م - أول ظهوره فى التاريخ (٥٢)
صفاته الشخصية (٥٣)	١٢٥٠م - بطل معركة المنصورة (٥٤)
١٢٥٣م - فراره إلى سوريا (٥٦)	١٢٦٠م - فى عين جالوت (٥٧)
١٢٦٠م - حادثة اغتيال قطز (٥٩)	
الفصل الثالث : الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقدارى الصالحى	٦٥
بيبرس السلطان (٧١)	رجل الدولة (٧٢)
السياسى المحنك (٧٤)	صليبيون اختاروه لحمايتهم (٧٥)
إحياء الخلافة العباسية (٩١)	

الصفحة

الفصل الرابع : حملات بيبرس العسكرية

٩٧

الاستعدادات العسكرية (٩٩)	بيبرس وقبرص (١١١)
١٢٦١م الإستيلاء على دمشق (٩٩)	بيبرس وملك صقلية (١١٢)
١٢٦٥م الإستيلاء على قيسارية (١٠٠)	بيبرس وأمير طرابلس (١١٣)
١٢٦٥م الإستيلاء على حيفا وأرصوف (١٠٢)	في معسكر الصليبيين (١١٤)
١٢٦٦م الإستيلاء على صفد (١٠٤)	فيليب أمير مونتفورت (١١٤)
١٢٦٧م بيبرس وعكا (١٠٩)	الإستيلاء على قلعة الأكراد (١١٥)

الفصل الخامس : المغول وحلفائهم

١٢٥

١٢٥٦م هولوكو في الطريق (١٢٧)	١٢٥٩م المغول في سوريا (١٣٠)
١٢٥٧م إبادة الحشاشين في فارس (١٢٨)	١٢٦٠م سقوط دمشق (١٣١)
١٢٥٨م خراب بغداد (١٢٩)	١٢٦٥م موت هولوكو (١٣٢)
الجورجيون والأرمن (١٢٩)	١٢٦٦م معاينة الأرمن في كيليكيا (١٣٣)

الفصل السادس : سقوط أنطاكية

١٣٥

نبذة تاريخية عن أنطاكية	(١٣٩)
١٢٦٨م الإستيلاء على أنطاكية	(١٤٠)

الفصل السابع : بيبرس ومملكة النوبة المسيحية

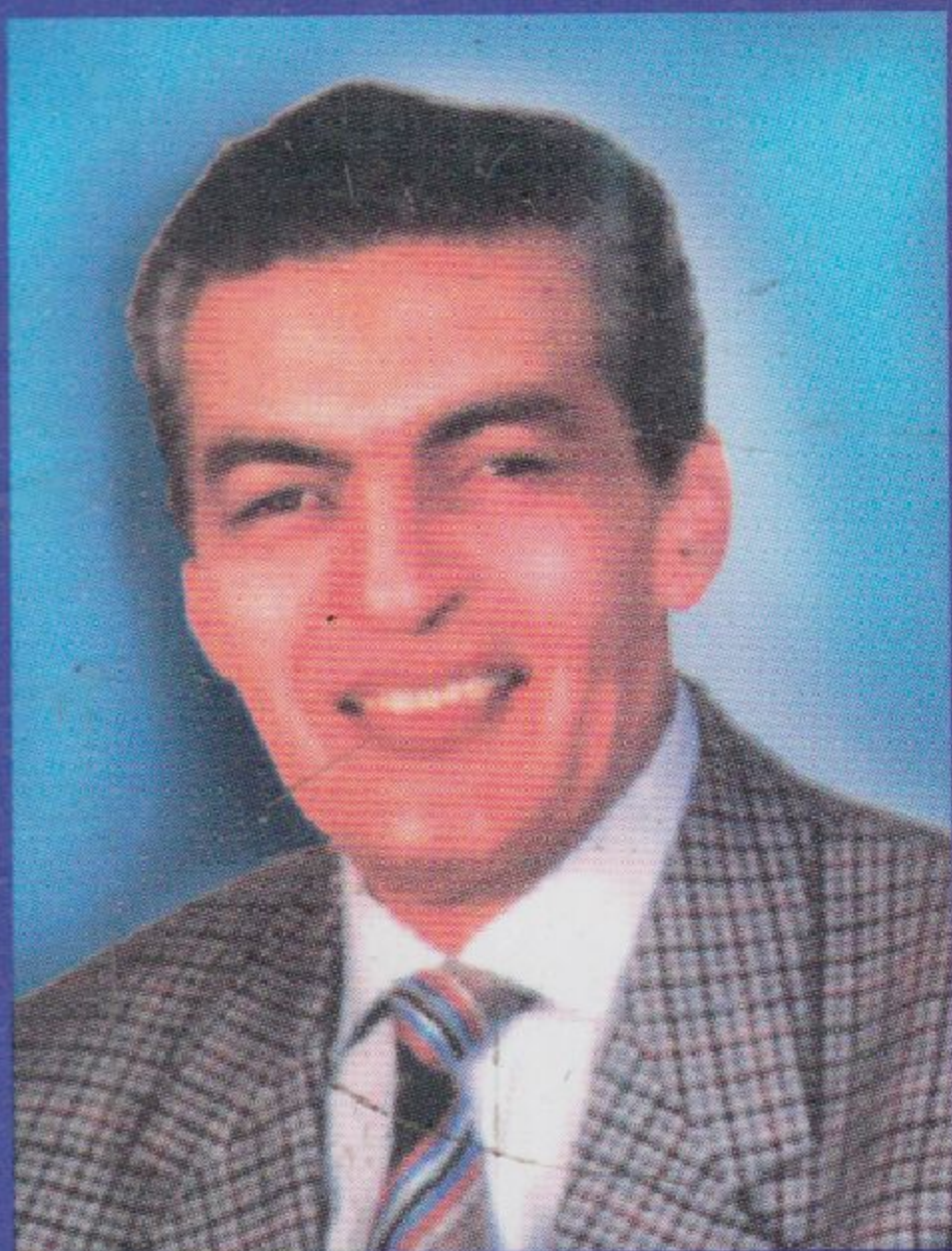
١٤٣

خاتمة : وفاة بيبرس

١٥٢

١٥٥	المراجع العربية
١٥٦	المراجع الإنجليزية
١٥٧	فهرري الخرائط والصور
١٥٨	فهرس الرسائل
١٥٨	فهرس الجداول
١٥٩	المحتويات





نورالدين خليل

المؤلف

- مترجم بالامم المتحدة
- عضو اتحاد كتاب مصر
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
- له تراجم ومؤلفات متعددة

Bibliotheca Alexandrina



1129862



بستان
المعرفة

لنشر وتوزيع الكتب

٠٤٥٢٢١١٤٩٥ - ٠١٢١١٥١٢٣٧

E-mail: bostan_elma3rafa@yahoo.com